الباب الاول

« في عجائب الارض . وفيه سبعة عشر فصلاً »

الفصل الاول

(في ذكر سبعة أنواع من عجائب النبات)

ولما كان من عادة الله في خليقته انه يؤلف بين الروح ولمثلها وان لله ملائكة يسوقون الاشكال الى اشكالها جمعته المقادير الالهية على ذوي مراتب علية واقدار رفيعة سنية ممن تغذوا بلبان الادب وارتضعوا ثدى الحكم في الارض المباركة فاجتمعوا في مجلس حافل ومشهد جامع وكانوا عشرة كاملة واخذوا في نوادر من الفنون والحديث شجون الى ان ذكروا عجائب النبات وغرائب الحيوان من الطرف المليحة والاحاديث الصحيحة

فقال احدهم : سمعت ان في بعض جزائر المحيط الاعظم شجرة تحمل خبزاً يقتات منه اهل تلك الجزيرة ويخزنونه ثمانية اشهر في السنة وهو يقوم مقام خبزنا الصناعي وهو غالب

طعامهم جعله لهم البارى قوتاً فضلاً منه ونعمة وذلك الخبز على هيئة كرة زنتها نحو أربعمائة وعشرين درهما ثم ان ثيابهم من قشر تلك الشجرة وقواربهم من سوقها وموائدهم من اخشابها فقد قامت مقام الحبوب وآلاتها واغنت عن زراعة القطن والكتان وغيرهما فسبحان من خص من شاء بما شاء لا إله إلا هو العزيز الحكيم

فقال الثاني : رأيت في بعض الكتب ان في جزيرة مداغشقر التي هي بجانب افريقيا شجرة تسمى شجرة السياح على هيئة اسطوانة ومرتفعة ارتفاعاً عظيماً ولا يزيد ورقها عن اربع وعشرين وهو عريض كالمراوح في اسفل كل ورقة امر عجيب وهو كأس صغير مستظل بظل تلك الورقة فيه ماء يبلغ نصف رطل مصرى عذب سائغ شرابه بارد وتلك الشجرة ليس حولها ماء البتة وانما تكون في الارض المقفرة فترى السياح اذا اشرفت نفوسهم على الهلاك انقذهم الله منه بشربهم من ذلك الماء المستظل بالاوراق حيث يثقبون الكأس من اسفله فيشربون الماء فان كان الكأس مرتفعاً عن الايدى طعنوه بحراب بأيديهم وتلقوه بالاواني فشربوا منه ولعمرك

كم نجت نفوس من الموت بسبب تلك الشجرة وانظر كيف جعل الله عز وجل ذلك الماء بقدر معلوم وقسطاس مستقيم حتى انجى به الوفاً من عباده رحمة منه وفضلاً. وسمعت ان في بلاد الهند شجرة تخرج لبناً اخثر[1] من حليب البقر وفي بلاد امريكا شجرة اخرى لها ثمر طعمه كطعم شراب الليمون ويخرج من ساقها لبن ابيض اشهى واحلى من حليب المواشي عليه مدار قوام بعض الجهات في برازيل

قال الثالث: قد علمت ان في الهند وافريقيا شجرة تخرج ثمراً كالقشدة قواماً وطعما ويبقى شهوراً في البلاد الحارة ولا يتغير طعمه ولا لونه فقد سابق النبات في ذلك الحيوان لمنافع الحيوان

وفي كل شيء له آية تدل على انه الواحد

فقال الرابع: قد سمعت ان شجرة الجوز الهندى الذي ترونه يباع بين ظهرانينا يتخذ من جوزه قبل نضجه شراب وبعد نضجه ما يحكى الحليب وتطبخ اوراقها كالخضر ويتخذ من عصارة ازهارها سكر ومن اخشابها وقشر جوزها اوان وصحون

---

(١) قال في الصحاح اخثرت الزبد تركته خاثراً وذلك اذا لم تذبه اه

وقصاع ويتخذون لهم بيوتاً من اخشابها وينسجون من اوراقها حصراً ولها ليف ينسجون منه الثياب والمناخل والقلوع والحبال ويتخذون من دهن جوزها زيتاً ومن نشارة اخشابها حبراً للكتابة ومن اوراقها قراطيس لها فمنها شرابهم ومطبوخهم وحلواهم واوانيهم وبيوتهم وفرشهم وثيابهم واحبال مواشيهم ودهنهم وخبزهم وورقهم (فتبارك الله احسنُ الخالقين) (وفي الارض آياتٌ للموقنين) اى دلائل دالة على قدرته وعظمته ووحدانيته

فقال الخامس : ايها السادة ما رأينا كالليلة بهجة وأنساً لقد أذكرتمونا بعجائب الرحمن ولطائف الاكوان وها أنا أذكر ما خطر بالخاطر ، قد قرأت في بعض الكتب ان من النبات ما أصوله في الهواء لا في التراب فيتعلق على غيره ويمتص غذاءه من الهواء مستغنياً عن الارض وانهارها وفي ازهاره العجب العجاب فقد صور بعضها الرحمن على صورة الانسان وبعضها كأنه النحل او الفراش فلو رأيته لظننت انه يجنى عسل الازهار اذا حركه الهواء كما ان بعض ازهار النباتات الارضية على صورة طيور صفر برأس وعينين ومنقار وعنق وصدر

وجناحين منتشرين بعض الانتشار منتصب القامة كما ينتصب الديك وعند اسفل بطنه نحلة بلون سنجابي واضعة فمها ببطنه كأنها تمتص منه شيئاً وهي ذات رأس وعينين وظهر منقوش وجناحين ممتدين من أصل فخذي الطير وكل هذه الاعضاء واضحة بينة لا أنها تقارب الاعضاء الحيوانية مقاربة وتسمى زهرة الطير او زهرة النحلة في برية بيروت منظر يستوقف الطرف ويدهش العقل ويحار فيه الاريب فسبحانك اللهم دللتنا على حكمتك باتقان صنعتك وعلى جمالك بحسن تصويرك وعلى قدرتك بتنويع الاشكال وتشكيل الانواع وهل غبت عن شيء فينكر منكر

وجودك ام لم تبد منك الشواهد

وكل وجود عن وجودك كائن

فواجد اصناف الورى لك واجد

سرت منك فيها وحدة لو منعتها

لأصبحت الاشياء وهي بوائد

وكم لك في خلق الورى من دلائل

يراها الفتى في نفسه ويشاهد

كفى مكذباً للجاحدين نفوسهم
تخاصمهم ان انكروا وتعاند

فقال السادس : ومن العجائب الربانية النبات المسمى بعابد الشمس وهو نبات بديع الصنع عجيب الاحكام جعله الله عز وجل عاشقاً للشمس يستقبلها اذا طلعت ولا يزال ميله اليها واتجاهه نحوها لسر لا يعلمه الا مدبر الكائنات ورابط السفليات بالعلويات ومدبر الحيوان والنبات وهذا النبات زهرته مستديرة ذات دوائر بديعة محكمة الوضع جميلة الهيئة ظريفة الشكل تحيط بها اهداب كخيوط الحرير وفي وسط نوع منه شيء كعقرب الساعة فكلما ارتفعت في وسط السماء ارتفع معها فاذا استوت في وسطها اتجه اليها على هيئة سطحية الوضع فاذا مالت مال معها الى ان تغرب فسبحان المبدع الحكيم

الفصل الثاني

(في ذكر المغناطيس والبوصلة واستطراد في تفسير « ان)
(في خلق السموات والارض واختلاف الليل)
(والنهار والفلك » الآية)

قال السابع: هذه العجيبة اذكرتني عجائب المغناطيس وما فيه من الخاصية فكما ان عابد الشمس يستقبلها كذلك نرى الابرة الممغنطسة يتجه احد طرفيها دائماً الى النجمة القطبية وقد تميل عنها بعض الميل كما هو مذكور في محله واليكم ايضاح الكلام عليها بعض الايضاح، اعلموا اخواني ان في الكون مادة تسمى حجر المغناطيس او المغناطيس الطبيعي من خواصه جذب الحديد فاذا وضعت قطعة من الحديد بجانب قطعة منه فانه يجذبها اليه وهي تجذب قطعة أخرى والثانية تجذب ما يليها وهكذا فالقطعة الواحدة من المغناطيس تجذب قطعاً كثيرة متتالية من الحديد فترى كأنها سلسلة متصلة ويحملها في الهواء بشرط ان لا يكون ثقلها اكثر من قوة جذبه وكل من الحديد الصاب واللين يكتسب هذه الخاصية اي يجذب الحديد وذلك بدلكه بحجر المغناطيس او بمغناطيس صناعي على كيفيات

مخصوصة معروفة عند أهل هذه الصناعة ولكن تلك الخاصية لاتدوم في الحديد اللين وتدوم في الصلب ويسمى ذلك بالمغناطيس الصناعي ومن عجيب امر المغناطيس انه اذا قرب قضيب منه الى برادة الحديد اضطربت اليه واخذت تثب اليه كما يثب الحيوان ثم تصطف صفوفاً منتظمة حوله على هيئة اشكال بيضية عجيبة بعضها وراء بعض بمقادير هندسية بديعة فما أعجب هذا النظام الساري في العالم كله حتى سرى الى الجماد الذي لا يعقل وما هذا العشق الذي يدهش الالباب (وكم من آيةٍ في السمواتِ والارضِ يمرون عليها وهم عنها معرضون) ولعمري ان عشق الحديد للمغناطيس لمما يستغرب اللهم عشق الحديد والقلوب غلف وصفا المعدن والنفوس غير صافية فاليك نهرع ان تصفي نفوسنا من الكدر هذا

ومنه الابرة الموضوعة في البوصلة المعتادة التي تشبه ساعات الجيب ولها طرفان احدهما يتجه دائماً جهة الشمال والآخر جهة الجنوب والذي في جهة الجنوب يسمى القطب الجنوبي والذي في جهة الشمال يسمى القطب الشمالي وتأخذ اتجاهاً يسمى بالخط الجانبي المغناطيسي وهو يميل شرقاً او غرباً

ميلاً قليلاً عن خط الزوال ويختلف ذلك الميل باختلاف الزمان والقرون والبلاد ومن عجيب هذه الابرة انها قد تتحرك وتستمر في اضطراب عدة ساعات ويحصل ذلك بكثرة لا سيما في أوقات ظهور الفجر الشمالي الذي هو عبارة عن نور عظيم يظهر في الشمال ليلا يراه سكان الاقطار الشمالية كسكان اسوج ونروج الذين يكثر عندهم الثلج حتى يكسو وجه الارض فيبدو عليها سناء ورونق وحسن لاشراق نوره على بياض الثلج فيظنونه فجراً ساطعاً اذاهم في الليل فياليت شعري ما المناسبة بين ذلك الضوء وتلك الابرة حتى تضطرب اليه وتكثر حركاتها وأي علاقة بين طرفيها وبين القطب الشمالي والجنوبي وما هذا الميل الذي يشاهد فيها عنهما ويا سبحان الله كأنه عزوجل لما جعل النجوم لنهتدي بها في ظلمات البر والبحر كما قال عزّ من قائل (وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآياتِ لقومٍ يعلمون) وقال في آية أخرى (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) وكانت النجمة القطبية لا تزول عن محلها حتى سميت مسمار الفلك فكان اليها اتجاه نظر الملاحين في أسفارهم وهي لا محالة قد تحجب عنهم بسحاب او ضوء نهار

كذلك جعل تلك الابرة الممغطسة متجهة الى تلك النجمة أو تميل عنها قليلاً بقوانين عرفها اهل تلك الصناعة لتنوب عنها في اداء وظيفتها في ظلمات البحر عند الحاجة الى ذلك فسارت السفن شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً تتردد في انحاء البسيطة وتنقل انواع البضائع وتسهل التجارة فهذه الخاصية اول رافع لشأن المدنية الحاضرة ولولاها لم تسهل المواصلات بين الأمم ولم يعل شأنها فقد كانت السفن قديماً لا تتجاوز شواطئ البحار فانظروا أيها العقلاء كيف جعلت هذه البوصلة لتعرف بها الامكنة المختلفة وتقاس بها البلاد في البر والبحر والظلمة والنور كما جعلت الساعات المعروفة لتقاس بها الازمنة (ان ربكم لرؤف رحيم) ويا سبحان الله كيف يقيس الانسان الزمان والمكان بآلتين صغيرتين في يده حتى كأن السموات والارض اجتمعت في قبضته (ان الانسان لكفور) فهذه من الآيات الدالة على حكمته تعالى وقدرته قال الله تعالى (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب

المسخَّر بين السماء والارض لآياتٍ لقومٍ يعقلونَ) وقد ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية ثمانية أنواع من عجائب مخلوقاته كل نوع منها تحته عجائب لا تحصر وآيات واضحات دالة على قدرته وكماله ووحدانيته لا إله إلا هو الرحمن الرحيم:

(الاول) خلق السموات والارض فكم فيهما من حكم وعجائب ومصالح يفنى الزمان ولا يمكن حصرها (الثاني) اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان بحساب منتظم لا يعتريه خلل ولا يشوبه تغيير (الثالث والرابع) السفن الجاريات في البحار تتردد من قطر الى قطر ومن قارة الى قارة بواسطة تلك الابرة التي ذكرناها وبهُدى النجوم في السماء . فبهذه الابرة ارتفع شأن هذا العصر وتبادل الناس المنافع واكلوا فواكه الشتاء صيفاً وفواكه الصيف شتاء كما هو مشاهد لسرعة النقل من البلاد الحارة الى الباردة وبالعكس فعم ربك رحمته حتى عمت هذه النعمة الناس بتلك الابرة الصغيرة فما اعجب ما صنع !

ولقد اخذتني الحيرة والبهر والدهش عن ان اعبر عما اختلج في صدري من تلك الحكم التي أودعها فيها بل هي التي انتشر بها العلم في جميع انحاء المكونة لتسهيلها انتقال

الناس من بلد الى بلد ومن اقليم الى اقليم ثم أعان على ذلك بخار الماء حتى سهل سير السفن في أي وقت من ليل أو نهار هدأ الريح أو تحرك (ولقد كرَّمنا بني آدمَ وحملناهم في البرِّ والبحرِ ورزقناهم من الطَّيبات وفضَّلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) و (الخامس) المطر الذي ينزل من السماء على الارض فينبت الزرع ويحيي به الحيوان والانسان مقدراً بقدر معلوم وعلى قدر الحاجة و (السادس) انه بث أي فرق في الارض الدواب وهي كل ما دب على وجه الارض من جميع الحيوان وكيف اختلفت الصور والاشكال والالوان والمقادير والطبائع والاصل في كل جنس من أجناس الحيوان ذكر وأنثى فقط و (السابع) تصريف الرياح في مهابها جنوباً وشمالاً وقبولاً ودبوراً و (الثامن) السحاب المسخر بين السماء والارض أي الغيم المذلل فانه أمرٌ من أعجب العجائب التي يحار العقل فيها فما هذا الاحكام والاتقان الذي أمسك به في الجوّ ثم نزل قطرات متتاليات ففيما تقدم دلائل لقوم يعقلون أي ينظرون بصفاء عقولهم ويتفكرون بقلوبهم فيعلمون حكمته تعالى وعظمته وتدبيره ورحمته ويناسب هذا ما رأيت في

الاحياء ان عطاء قال انطلقت يوماً أنا وعبيد بن عمير الى عائشة رضى الله عنها فكلمتنا و بيننا و بينها حجاب فقالت ياعبيد ما يمنعك من زيارتنا قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا قال ابن عمير فأخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فبكت وقالت كل أمره كان عجباً أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال ذريني أتعبد لربي عزّ وجل فقام الى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلي فبكى حتى بلّ لحيته ثم سجد حتى بل الارض ثم اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذن لصلاة الصبح فقال يا رسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال ويحك يا بلال وما يمنعني ان ابكي وقد انزل الله تعالى عليّ في هذه الليلة (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الالباب) ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها فقيل للأوزاعي ما غاية التفكر فيهن قال يقرؤهن ويعقلهن وانما ذكرت هذا لكم يا قوم لتعودوا أنفسكم التفكر في جمال الصنعة الالهية

ولنرجع الى ما نحن بصدده فنقول ومن حكم تلك

الابرة أنها تعرف بها القبلة أيضاً كما هو مشاهد فقد استبان ان شأنها عظيم في الامور الدينيـة والدنيوية فقـال بعض الحاضرين وأين يوجـد حجر المغناطيس فقـال هو منتشر في الكون الا انه يكثر في بلاد السويد والترويج في الشمال من أوروبا وذكر الاقدمون انه يفقد هـذه الخاصـية اذا أصابه رائحة الثوم أو حصلت زلزلة فاذا غسل بخل في الحالة الاولى او سكنت الزلزلة في الحالة الثانية رجعت خاصية جذب الحديد اليه والله اعلم فياقوم لماذا كانت رائحة الثوم تضاده ولم توقفه الزلزلة وما المقاربة بينه وبين الخل وبالجملة فأمر المغناطيس قد اعجز العلماء قديماً وحديثاً عن ان يقفوا على سره وليس لهم في ذلك تعليل يشفي الغليل كالكهرباء والضوء والروح وغيرها. قال مؤلف هذا الكتاب وسنشبع الكلام على هـذا وأمثاله ان شاء الله تعـالى في كتابنا « ميزان الجواهر » مما لم تقف عليه في كتاب

الفصل الثالث

(في حكمة الله عز وجل في النبات الذي يشارك الحيوان)

(في الاحساس ويذكر فيه القيطس)

(فقال الثامن) مما سمعنا من عجائب البلدان وغرائبها ان بعض النبات يشارك الحيوان نوع مشاركه وهو ثلاثة انواع : فالاول نوع يقال له السنط الحساس وسمى حساساً لأنه اذا لمسه انسان أوحركه انضمت اوراقه حين احساسها به وتشنجت فهي كإنسان يستحي من الملامسة والثاني نوع ينبت على غيره من النبات فيتغذى من عصارته كما يتغذى حيوان من جسم حيوان آخر فهو على النبات الآخر كالبرغوث في جسم الانسان يمتص من دمه ويتغذى من جسمه الثالث نوع يتغذى بالحيوان وذلك ان الله جلت حكمته خلق على اوراقه مادة يحلو مذاقها عند الذباب فمن جهله وشراهيته يسقط عليها فمتى احست به تلك الاوراق انضمت عليه وافترسته وامتصته وشربت ما فيه من الرطوبة وتركته ميتاً ورمت بقشره فسبحانك اللهم يا واسع يا حكيم

فياقوم كيف كانت تلك المادة مناسبة للذباب وقد جعلت كشبكة له والقى عليه الجهل بها (انَّ اللهَ هو الرَّزَّاقُ ذو القوَّةِ المتينُ) فقد رزق النبات من الحيوان كأنه يأخذ بثار الاول من الثاني وسبحانك اللهم كل هذه العوالم تطلب صيداً لكن اختلفت شباكها كما نصبت العنكبوت منسوجها لصيد الذباب والبعوض فتأملوا يا اخواني لما كان هذا النبات عديم القوة على اقتناص شوارد الذباب الذي له قدرة على سرعة الطيران وكان لا بد له منه جعل سبب صيده حاضراً عنده لم يكلفه ادنى مشقة في تحصيله لعدم قدرته على شيء اذ لا يكلف العاجز بخلاف العنكبوت مثلاً فانه لما احتاج لصيد ذلك الحيوان نفسه وكان له اي العنكبوت نوع قدرة جعل شبك صيده تلك الخيوط التي يسهل عليه نصبها بترتيب بعجز مهرة المهندسين حيث يحكم السدى واللحمة بمقياس مخصوص ونظام عجيب وتلك الخيوط هي عبارة عن لعابه حين يظهر للشمس فيقتنص الذباب ويقع حين ذاك في الشرك فسبحان الذي أعطى كل شيء خلقه ثم

هدى[1] وهكذا اذا نظرنا لجميع الحيوان والنبات نرى ترتيباً عجيباً وحكماً باهرة تعجز احكم الحكماء واعلم العلماء ومما يقرب من هذا ان في الاقطار الشمالية حيتاناً عظيمة تسمى القيطس النفاخ وهو حيوان عظيم الحلقة ذو جسم جسيم ومنظر عظيم يبلغ طوله في النهاية ثلاثين متراً ورأسه ثلث جسمه مملوءة زيتاً يبلغ نحو مائة برميل وفكه السفلى خال من الاسنان والعلوى ذو صفائح رقيقة حادة فاذا أراد ان يأكل فتح فاه كالقنطرة ودخل الماء باسماكه فيه فهو فريسته وغذاؤه ثم يخرج الماء بواسطة حفرة انفية موضوعة في أعلى الرأس كأنها انبوبة يخرج منها الماء عند اطباق فمه عليه كنافورة يرتفع ماؤها ثم يقع كمطر رقيق ويبقى السمك فيبتلعه ولا يتغذى الا به ثم ان زيته متى برد يتجمد ويسمى منّ القيطس الذي يستعمل منه الشمع الشفاف فانظروا كيف خص الله عزّ وجل البحر الشمالي بهذا الحيوان فان سكان تلك الجهات يحتاجون الى ما يقاوم البرد الذي يكثر عندهم فخلق الله عزّ وجل لهم هذا السمك في

---

(١) انظر في كتابنا جمال العالم فقد نقلت هناك عجائبه عن علماء الانجليز بتوسع واسهاب اه مؤلف

بحرهم واكثر فيه من الزيت ليشربوه فيحدث حرارة ترد هجمات جيوش البرد ويتغذون بلحمه (وما كُنَّا عن الخلقِ غافلين) (وإن كثيراً من الناسِ عن آياتنا لَغافلون) وانظروا ياقوم كيف اختصت تلك الاقطار به ولمَ لمْ يخلق في بحارنا ولا اخالكم تقولون الا انه لا احتياج له الا في تلك الاصقاع كما انه عز وجل خلق في ارضهم الدب واكثر منه فيلبس اهل تلك البلاد جلده الغليظ وقاية من غوائل البرد ايضاً قال تعالى (وإنْ من شيءٍ الاَّ عندَنا خزائنُهُ وما نُنَزِّلُهُ الاَّ بقَدَرٍ معلوم) وقال تعالى ايضاً (وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان الله وتعالى عمَّا يُشركون) فهو اعلم بمصالح خلقه الحكيم في صنعه المدبر الذي أحسن كلَّ شيءٍ خلقه ثم هدى (ان اللهَ لَذُو فضلٍ على الناسِ ولكنَّ اكثر الناس لايَشكُرُون) ومن عجيب امر هذا الحيوان انه لايتنفس في الماء كالسمك بل يرفع رأسه كل عشرة دقائق او خمس عشرة دقيقة مرة واحدة ويتنفس من الهواء وقد كان القدماء من أجل ذلك يسمونه بنات البحر وبنوا عليه حكاياتهم الطويلة من وجود سمك كالآدميين وان كنا لانجزم بكذبه ولكن

هذا ما وصل الينا وانما قلنا لا نجزم بكذبه لان عدم العثور على الشيء لا يدل على عدمه في نفسه وهـذه قضية عقلية غلط فيها علماء أوروبا في العصر الحاضر الا المحققين منهم فكثيراً ما نسمع من الشبان الشرقيين الذين تلقفوا كلمات من علم توجيه سهام اللوم والتنديد الى من زاد على تلك الكلمات لاحسانهم الظن باؤلئك القوم واعتقادهم انهم أوصلوهم الى اسمى درجات العلم حتى ان احد الاطباء من المصريين قال لي يوماً انا انكر علم الفلك اذ لا اصدق الا ما اشاهده فعجبت كل العجب واخذت اقيم له الحجج بالتي هي احسن حتى قنع ثم رأيت له بعض شبه في آيات قرآنية لم يحط بها علماً فما زلت به حتى عرف الحقيقة . فانظر كيف انكر هذا علماً برأسه أما علماء الاسلام فهم معتدلو المشارب فلقد رأيت في كتب تقويم البلدان (الجغرافيا) حين ذكروا الاقاليم ونهاية الارض المعمورة انهم قالوا وليس وراء هذه البلاد غيرها اذ لو كان هناك اناس لأتوا الينا او وصلنا اليهم مع تداول السنين وكثرة الاسفار وهذا دليل يفيدنا الظن فقط اذ يجوز ان يكون هناك قوم حال بيننا وبينهم بحار أو جبال اذ عدم عثورنا عليهم لا

يقتضي عدمهم في انفسهم هذا معنى ما قالوه و بعد ذلك بازمان ظهر كرستوف كلمب واكتشف امريكا من نحو اربعة قرون باعانة الملكة ايزابلا وزوجها الملك فرديناند حاكمي اسبانيا فظهر بذلك وجود اناس آخرين

ولنرجع الى ما نحن فيه فنقول : وهذا الحيوان في غاية القوة حتى انهم اذا ارادوا اصطياده اجتمع كثير من السفن في البحر فاذا رفع رأسه من الماء ليستنشق الهواء رموه بخطاطيف في اطراف الحبال العظيمة فمتى نشبت به تلك الخطاطيف نزل بها في قاع البحر بحركة عنيفة جداً تحدث حرارة شديدة على بكرات وضعت عليها الاحبال بالسفن ولذلك تصب حنفيات عليها عند تلك الحركة خوفاً من احتراقها من تلك الحرارة الناشئة عن الحركة وقد تستعاض البكرات من الخشب بمثلها من الحديد والاحبال بسلاسل و بذلك لا يحتاج لصب المياه على البكر والسلاسل وهؤلاء الصيادون متى اصطادوا واحداً منها اغناهم ولكن يبقون على خطر عظيم في البحر من شر أقارب ذلك الحوت اللائي يتربصن بهم الايقاع والفتك في كل آن لقوتها وشدة بطشها فهذا الحيوان من عجائب صنع اللطيف الخبير

الفصل الرابع

(في ذكر مسائل متفرقة في النبات)

(وفيه النبات الذي يتحرك في الدقيقة ستين مرة)

(فقال التاسع) ان في صغير النبات وكبيره وعظيمه وحقيره لآيات لاولى الابصار ودلائل لاولى الافكار وتبصرة للعاقلين على قدرته تعالى عز جلالاً وجل كمالاً . فما خلق ربكم شجرة ساقها عظيم جداً في احدى جزائر كناريا في المحيط الاتلانتكي (بحر الظلمات في غربي افريقيا) فقد رأوا هناك شجرة عظيمة لو وقف حول ساقها عشرة رجال كل منهم تتلاقى اطراف اصابعه باطراف اصابع الآخر مع مدهم ايديهم لم يبلغوا نهاية محيطها وقد قيل ان هذا النبات بطيء جداً حتى قيل ان هذه الشجرة كانت تنمو قبل ابينا آدم بقرون كثيرة واين هذه من النباتات التي لا تشاهد بالعين المجردة وانما تظهر بالمنظار المعظم (المكرسكوب) فان الطحلب الذي يعلو وجه الماء والعفونة التي تلتصق بالجدران وغيرها اذا نظرت بالمكرسكوب رؤيت كأنها بساتين مزهرة مثمرة تسر الناظرين وتبهر المتفكرين او غابات كثيفات او مروج

واسعات نضرات ثم تنتشر بذورها في الهواء مع جملة الهباء تحل وترتحل في جو السماء والله حفيظ لها ومتى وافقها الحال استفرخت ونمت وازهرت. ثم هذا البذر لا تراه العين المجردة الا كالغبار الاخضر فانظروا هذا العظم مع هذا الصغر وما هذا التباين العظيم والفرق الجسيم . وكان ابراهيم المصري تلوح على محياه في ذلك المجلس بوارق النور ولوامع الاشراق لملاءمة تلك النوادر الطبيعية ما في فؤاده وموافقتها لغريزته فكان كلما سمع نادرة ازداد وجهه اشراقاً وبهجة وضياء فقام بينهم خطيباً وقال يا معشر الرفاق لقد آثرتمونا بالايناس والبشر والاحسان والفضل والمعروف ومنحتمونا فوائدكم وأنلتمونا عوائدكم فقد عمني السرور وشملني الحبور بحسن أحاديثكم ولطف شمائلكم وما اقتبست من أنواركم فتشبهت بكم وقمت بينكم خطيباً شاكراً لصنيعكم ملتمساً ان تأذنوا لي ان القي على مسامعكم ما اطلعت عليه من تلك العجائب وذلك ان في بلاد الهند على نهر الكنج نباتاً تحرك اوراقه كل دقيقة ستين مرة فمن ذا الذي يشاهد هذا او يسمع به ولا يأخذه العجب في ذلك الابداع والاحكام والاتقان فهي ساعة لا يعتورها

خلل ولا يشوبها ملل تتحرك ليلاً ونهاراً صباحاً ومساء تحرك الريح ام سكن قد شهدت بان فاعلها قادر مختار لا يحكم عليه ناموس ولا تدخل قدرته تحت تحديد فانظروا ماذا في السموات والارض وما خلق الله من شيء فان آجالنا قصيرة ومدتها حقيرة :

شرّد النوم عن عيونك وانظر حكمة توقظ النفوس النياما
فحرام على امرئ لم يشاهد حكمة الله ان يذوق المناما

ومن العجائب نبات يتحرك بنفسه حركات يرسم بها في الهواء مخاريط هندسية ووريقته مؤلفة من ثلاث وريقات اكبرها العليا في الوسط والصغريان تحتها على الجانبين وهما تتحركان مدة حياتهما ليلاً ونهاراً تحرك الريح ام سكن في البرد والحر والصحو والمطر والشمس والظل والظمأ والري (فتبارك اللهُ احسنُ الخالقين) ومنه نوع تتحرك وريقته الوسطى صباحاً ومساء فقط كأنها دلالة على اقبال النهار وادباره بخلاف الجانبتين فان احداهما ترتفع والاخرى تنخفض طول النهار هذا ولما رأى مشركو الهند تلك الساعه النباتية استعظموا هذه الحكمة وعظموا هذا النبات واعتقدوا ان فيه قوة الهية

وما هو الا شاهد بانفراد خالقه بالربوبية واحكام الصنعة :

وفي كل معبود سواك دلائل من الصنع تبدى انه لك عابد

وكانه عز وجل جعله نموذجاً لتقدير الزمن حيث جعل حركة كل ورقة في مقابلة ثانية ومن الثواني الستين تتكون الدقائق ومن الدقائق تحصل الساعات ومنها الايام ثم الشهور ثم السنون ثم القرون والدهور ولعل أول مقدر للزمن كان ممن رأى هذا النبات واعلموا يا اخواني ان عالم النبات اشتمل على العجائب والغرائب وحير الألباب بما أودع فيه من النظام المحكم والاسرار والحكم فان في اختلاف اصنافه واشكاله واوراقه والوانه وازهاره وطعومه وروائحه وكبره وصغره ومناظره ومنافعه ومضاره وجماله وبهائه وحسنه دلائل قاطعة وبراهين ساطعة على عظمة ذلك الخالق وقدرته وعلمه وارادته وابداعه واحكامه اللهم اهدنا بهدايتك ونور بصائرنا بعنايتك وارشدنا الى اقوم طريق فانظروا الى اللون وحده كالخضرة العامة في النبات فانها نوع واحد ولو قارنا بين اصناف الالوان في انواع النبات لم نجد لوناً يشبه الآخر مع ان النبات الذى علم الآن ينوف عن مائتي الف نوع وكل منها له لون مخصوص من نوع الخضرة.

الفصل الخامس

(محاورات بين خاطبين ومخطوبات)

وكان بالمجلس شيخ من ذوي اليسار وكبار التجار ذو منظر وسيم تلوح عليه آثار النعمة وامارات الهيبة ودلائل الكمال وقد جلس في ناحية عنهم فقال ايها الشاب الذكي والعالم اللوذعي أرى لغتك مصرية فقال نعم أنا مصرى فقال وماجاء بك هنا وما سبب هذا السفر فاخبره بحقيقة حاله ومنتهي آماله وانه يبحث عن ذات جمال باطني وعلم وادب فتاة قد اتخذت من كل فن طرفاً واغترفت من كل نوع من بحور الأدب بيدها غرفاً فقال همة عالية ونفس شريفة

كل له غرض يسعى ليدركه والحر يجعل ادراك العلا غرضاً

قد اذكرني أيها الشاب ما قرأته في كتاب المواهب الفتحية للاستاذ العلامة الشيخ حمزة فتح الله مفتش أول اللغة العربية بدياركم المصرية أن امرأ القيس آلى على نفسه ان لا يتزوج امرأة حتي يسألها عن ثمانية واثنتين وأربعة فلم يزل يسأل كثيراً من النساء فيجبنه بأربعة عشر فيتركهن حتى صادف

فتاة حسناء فقالت له أطباء [1] الكلبة وأخلاف الناقة وثديا المرأة فتزوجها

قال وقد عثرت على محاورة جرت بين خاطب ومخطوبته مترجمة عن بعض اللغات الأجنبية الى اللغة العربية فها أنا اقص عليك قصصها بلسان عربي مبين

حكي ان خاطباً قال لمخطوبته في اقتراحه أنا لا اريد من ربة منزلي الا ان تجيد اصلاح طعامي وخياطة ثيابي حتى انها لترفأ الاثواب المشرفة على البلى. فقالت الفتاة اني ليعز عليّ ان تكون هذه طلبتك ومنتهى اختيارك ومبلغ علمك فقد قيل يعرف الرجال باختيارهم واني لأحسن فيك الظن بان لك وراء ذلك مأرباً اعلى ومراماً اعز واغلى. وها انت ابديت اقتراحك عليّ وأنا اتى فهاك سؤال الانثى ولتكن رجلاً اني اريد منك ان تكون متحلياً بحليتين ومتسماً بخصلتين اما الاولى فان تكون همتك همة الملوك كما قيل :

---

(١) والاطباء جمع طبي والاخلاف جمع خلف والطبي والخلف للابل والطبي أيضاً لنحو الشاة والفرس وكل من الطبي والخلف للحيوانات المذكورة كالثدي للمرأة اه

همتي همة الملوك ونفسي نفس حر ترى المذلة كفرا

واما الثانية فان تكون نوراً يستضاء به في مدلهمات الحوادث كالنجم الثاقب والبدر الساطع متحلياً بحلي الآداب مشرقة عليك شمس المعارف

قسماً بالشمس وضحاها والقمر اذا تلاها لئن طلبت لذيذ كلك وخياطة ثوبك لم ترم الا طاهي الطعام او خائط قميص وحزام فاين سؤالك من سؤالي واين شائك من جمالي كيف لا وأنا اطلب ملكاً منزلي ولايته رفيع العماد حسن الذكر بين العباد ورجلاً بعيد الصيت في البلاد سديد الاقوال حسن الافعال ولئن اعجبك بهاء جمالي وماء شبابي يترقرق في محياي بهجة وحسناً وورد خدي الذي يكتسي تارة حمرة الخجل واخرى صفرة الوجل فكم افل بدر جمال وانحنى غصن اعتدال وتحولت حال فاذا ذبلت وردته وذهبت نضرته وقلت بهجته فهل ولوعك بي يدوم ومن لي بقلبك اذا اعرض الجمال عني وازورّ (ومن ذا الذي يا عز لا يتغير) وما جمال الظاهر الا كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً فهو سريع الفناء قليل الغناء أما الجمال الباطني والكمال النفسي

فهو الذي يأمن معه الغرام ما دامت الفتاة وما دام . اما ظاهر الجمال فطيف خيال وحيلة محتال فكيف يعول عليه في دوام الوصال وهل حبك شمس تستمد من اضوائها سيارات آمالي ولا تكسف . ولعمرك كل فتاة زوجت فاما ان تنال نعيماً مقيماً او عذاباً أليماً

وهاك قولاً فصلاً وحكماً عدلاً : اني اريد بعلاً حسن الاخلاق طيب الاعراق جميل الصفات ذا نفس ابية وهمة علية فان ظفرت منك بذلك فانت بدر وفؤادي منزلته وكنت لك بقلبي اطوع من ساعدك لعضدك ومن بنانك ليدك والا فاصلاح الطعام وخياطة الثياب تنالهما من الفتيات بمنح الجنيهات ولكن الفتيات العالمات بقدرهن لو انفقت مافي الارض جميعاً لم يجبنك بقلوبهن وانشدت[1] :

طلبتَ اثمن شيءٍ في الوجود غلا
قلب التي لم ينلها كل من سألا
سألتني وأنا أنثى سؤال فتي
فقف لتسألك الانثى وكن رجلا

---

(١) هو من نظم الشيخ نجيب الحداد

تريدني أن أجيد الطبخ حاذقة
وأرفأ الثوب حتى ما عليه بلا
أما أنا فطلابي أن تقـدم لي
قلباً كنجم ونفساً كالسماء علا
فان طلبت لذيذ الأكل مجتهداً
وان يكون عليك اللبس مكتملا
فانت تطلب طباخاً على قدر
وذات خيط صناعاً تصلح الخللا
اما سؤالي فأعلى من سؤالك لي
ومنيتي فوق ما ترجوه لي املا
اذ أبتغي ملـكاً بيتي ولايته
وابتغي رجلا بين الورى مثلا
انا صغيرة سنٍّ في الشباب ولي
من فوق خديَ ورد يكتسي خجلا
لـكنّ ذا كله فانٍ بجملته
وعن قريب ترى ورد البها ذبلا

فهل يدوم غرام في فؤادك لي
بعد الصبا بعد ما قد كان مقتبلا
وهل فؤادك بحر لا قرار له
تجري به سفن آمالي ولا وجلا
فان كل فتاة زوّجت حملت
في زهرة اكليلها النعمى او الاجلا
اني اريد مساواة ومعدلة
وخير بعل بخير الخلق قد كملا
فان ظفرت بهذا منك كنت كما
ترومني وأتاك القلب ممتثلاً
اولا فان الذي تبغي خياطته
وطبخه فأمور نيلها سهلا
تنالها بأمور المال تبذلها أما الفتاة واخلاص الفتاة فلا

الفصل السادس

(في بعض آداب السفر)

ثم اخذ التاجر بيد ابراهيم يقصدان الترويض في بعض البساتين واضمر في نفسه صحبته لما اعجبه من ذكائه وبراعة منطقه وحسن شمائله فاخذا يتجاذبان اطراف الاحاديث فكان منها ان قال التاجر لابراهيم: اعلم ايها الشاب اني تركي الاصل وجبت البلاد شمالاً وجنوباً شرقاً وغرباً وها انا الآن استوطنت مدينة اصبهان في البلاد الفارسية وقد اتيت للتجارة في هذه الديار ليسومها التجار ومتى راجت بضاعتها وتم بيعها رجعت الى أهلي وأولادي فان أحببت ان ترافقني في أسفاري وقضاء أوطاري كنت لك معيناً بنفسي ومالي على هذا المطلوب وابحث لك بحثاً دقيقاً فتوسم الشاب فيه الخير وتذكر قول سيدنا علي كرم الله وجهه يابنيّ اذا احببتم الرجل بدون سابقة احسان منه اليكم فاعلموا ان فيه خيراً فارجوه واذا كرهتم الرجل بدون سابقة اذى منه اليكم فاعلموا ان فيه شراً فاحذروه وقول سيد نوع الانسان وافضل ولد عدنان عليه الصلاة والسلام

« الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » فرافقه ووافقه وصاحبه وماشاه ونادمه واخذ منه واعطى فراجت بضاعتهم وربحت تجارتهم وكانوا مهتدين في اسفارهم فعرف كلّ مشرب صاحبه وخبر مصادره وموارده ثم رجعا وهما فرحان الى بلاد أصبهان في أمن وأمان وربح بلا خسران فألقيا عصاهما واستقرت نواهما وقرا عيناً وذهب عنهما وهن السفر بالحضر ثم اقبل الشيخ العظيم على الفتى ابراهيم وقال له اعلم انه ما كان سفري معك الا لاخبر خبرك وقد عرفتك صديقاً وفياً كما قيل (السفر يسفر عن اخلاق الرجال) وانما تعرف اخلاق الانسان في أوقات الشدائد التي اشدها الأسفار كما قال افضل أولى الألباب (السفر قطعة من العذاب) وان عندى ابنة نشأت على تعلم العلوم والآداب وارتضعت أثداء الأدب ووردت مناهل بحور المعارف واغترفت من تليدها والطارف وكان أول تعليمها في بلادنا التركية وهي كما تعلم محط رجال الفضل والادب عليها ظاهر ونورها باهر اليها يهرع الطالبون وعليها يعول المسلمون قلوبهم للعلوم واعية لا تسمع فيها لاغية وبعد ان أتينا الى أصبهان

أكبت على مطالعة الكتب العلمية والعلوم الادبية فهي على شاكلتك تميل الى التفكر في المصنوعات وعجائب المبدعات وغرائب السموات وقد أنفت من جميع من خطبها من ابناء التجار والامراء الكبار وأرباب اليسار وانما اخترتك لها خليلا بعد ان تبحث عنها وتعرف أحوالها الظاهرية والباطنية وأنت بعد ذلك بالخيار فسل من تريد وانما فعلت ذلك لانه قيل في المثل اعتن باتقاء بعل ابنتك اكثر من اعتنائك بحليلة ولدك وها انا اصطفيتك لنفسي واخترتك لابنتي ، فشكره ابراهيم شكراً جزيلاً على صنائعه الجميلة

الفصل السابع

(في سؤال ابراهيم للفتاة في انواع من العلوم)

(وفيه كيفية التفكر في العجائب)

ثم بعد ان سأل ابراهيم عنها من الاصحاب والجيران وعامة اهل البلاد وخاصتهم ووصفوها له وجدها بارعة الجمال عالية العرفان قد فاقت اهل زمانها جمالاً وبهاء وأخلاقاً وآداباً وعرفت الاشغال المنزلية والاعمال البدوية فاستأذن

من ابيها ان يسألها مسائل من العلوم الحديثة والقديمة فخصص لهما كل يوم ساعة من النهار بحيث تضرب بينهما الستائر ويجلس هو واخواتها خارجها وتجلس هي وأترابها المتعلمات داخلها ولما حضر ابوها أول مرة مجلس المناظرة وجد الخجل باديًا عليهما فقام من المجلس ولم يرجع اليه بعد ذلك فأخذ يسألها ابراهيم في انواع من العلام العقلية والنقلية كالتوحيد والتصوف والفلسفة والفقه واللغة والادب وعن الصنعة الالهية وما اكتشفه العلماء في هذه الاعصر الاخيرة من كنوز المعارف واللطائف والبدائع والعجائب فوافق شن طبقه وكانا متضلعين كلام الأوائل وقرأ العلوم الحديثة في المدارس فرجا البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان من كل غريبة شاردة ولطيفة نادرة فكان يسألها وتجيب وتسأله ويجيب فكان اول ما سألها ان قال اى علم من العلوم اوفق لطبعك وآنس لفكرك وابهج لقلبك يسرك لدى الاحزان ويؤنسك اذا تحاماك الخلان جليسك في الخلوة ومنير وجهك في الجلوة قالت تلك المعارف الربانية والعجائب الالهية وليس لها حد محدود ولا علم

مخصوص بل كل علم فيه عجائبه وغرائبه اشرقت فيه انواره وظهرت فيه آثاره قال الله تعالى (الله نور السموات والارض) كعلم الفلك وعلم تخطيط البلدان (الجغرافيا) وعلم طبقات الارض (الجيولوجيا) وعلم الانسان والحيوان والنبات والمعادن والجبال والأنهار :

كل شيء منكم عليكم دليل وضح الحق واستبان السبيل

ولقد كنت في مبتدا امري انتبذ من اهلي مكاناً قصياً في بستان لوالدي ويحار فكري حين انظر الى السماء وزرقتها والنجوم المرصعة فيها وجمالها وبهائها وحسنها ويلذ لي ذلك الفكر وانشد قول مجنون ليلى :

واخرج من بين البيوت لعلني احدث عنك النفس بالليل خاليا

فيشتد شوقي لا سيما اذا جن الظلام واختلط وارخى الليل سدوله وهكذا اذا هبت نسمات الاسحار على اغصان الاشجار وغنت الاطيار فاذكر عند ذلك الصنعة الألهية والحكم الربانية ويبتهج قلبي ويأنس بها لبي ومن عجيب ما اتفق لي اني كنت اعجب بهذا البيت المتقدم في خلوتي واجده يوافق ما في نفسي من الميل الغريزي الى الوقوف على احوال

هذه العوالم الالهية ولما ساعدني الحظ على مطالعة الكتب والتضلع من العلوم العقلية والنقلية والفكاهية وقرأت البيت المذكور في قصيدة طويلة رأيت بعض العلماء قال ان عليه نفحة معنوية واشارة ربانية فوافق رأيه رأيي ومشربه مشربي فحمدت الله على ذلك وهذا ديدني ودأبي

وكانت كلما ذكرت شيئاً من ذلك يتلألأ وجه ابراهيم نوراً وبهجة لملاءمة ذلك لافكاره وطباعه ثم قال لها ابراهيم ماذا تقولين اذا نظرت لهذه العوالم من وجهة الخالق سبحانه وتعالى فقالت هذا بحر لا ساحل له فهاك مقالا وجيزاً ان الله سبحانه وتعالى وسعت رحمته كل شيء فهو يكلؤنا بحفظه ليلاً ونهاراً الا ترى الى الشمس المشرقة فانه اذا قرب ظهورها من المشرق وسطعت انوار الفجر تحرك كل حيوان وانتعش بعموم رحمة خالقه اللطيف بعباده الرؤف بهم فتأخذ الحيوانات تجد في تحصيل ما به قوام حياتها فاذا ضعفت قواها واحبت الراحة بالنوم أخذ تلك الشمس المشرقة ووراها بالحجاب عن اعينهم فهناك ترى كل حيوان يرجع الى سكنه ويأنس بحبه ويجن عليها الليل ويكسو وجه الارض بلباس ظلمته ويحمى

الله عز وجل مخلوقاته ويحرسهم بعينه التي لا تنام وهم آمنون مطمئنون فاذا اخذت الاعضاء راحتها واحبت السعي على معاشها اتى بالشمس كرة أخرى وهكذا فالدنيا كبيت مظلم والله ربه والحيوان عياله والشمس سراجه فمتى احتاج العيال للضوء جعل فيها سراجه الوهاج قال تعالى(وجعلنا فيها سراجاً وهاجاً) ومتى استغنوا عنه واراه عن اعينهم بالحجاب وغطاهم بغطاء رحمته وانزل عليهم سكينته ولذلك ترى كل شيء في الليل خاشعاً ساكناً خاضعاً والسكون عاماً والحيوان هادئاً فهناك تتجه قلوب اهل المحبة العارفين والعلماء العاملين لجمال وجه ربهم اذ لا يرون الا واحداً في الوجود ويفهمون معنى قوله عز وجل لمن الملك اليوم واجابته نفسه بنفسه بقوله لله الواحد القهار وهناك يأخذون في التهجد وقلوبهم منشرحة مستطلعة الى كشف الحجب عنها وظهور جمال اشراق بهجة الذات العلية فسبحانك اللهم ياذا الجلال والبهاء ، غمرت عبادك برحمتك وآنستهم بلطفك لك خشعت القلوب ودعتك الألسن على اختلاف لغاتها وبك ابتهج المسبحون و بذكرك لهج المخلصون ولنور وجهك تطلع المحبون وفي جمال بهجة انوارك تحير

العاشقون انت الأزلي الأبدي الأول الآخر الظاهر الباطن فكل مخلوق تحت قهر عظمتك مغمور برحمتك مستشرف لنعمتك ما خلق الأولين والآخرين عندك الا كنفس واحدة وانت السميع البصير تعلم ما بين ايدينا وما خلفنا وما فوق السماء وما تحت الارض وما احسن ما روينا من كلام اهل محبتك العاشقين لجمالك :

وعلى تفنن واصفيه بحسنه يفنى الزمان وفيه مالم يوصف

فانبهر ابراهيم من حسن كلامها ثم قال كيف تعتبرين من النظر في هذه العوالم من جهة الكمالات النفسية والآداب وغير ذلك فقالت

ليس شيء الا وفيه اذا ما قابلته عين البصير اعتبار

وكل فطن له شواهد فيما يراه من هذا الجمال الباهر فاذا رأى ضياء الشمس ونور القمر وبهجة النجوم وحلل الجمال المشرقة في اكناف السموات والأرض عمد الى نفسه فجملها بأحسن الصفات وابهاها بحيث يكون بساماً نظيف الظاهر والباطن مقللاً للغذاء ملازماً للاستحمام في اغلب الاوقات والوضوء تاركاً للحقد والحسد والغل مواظباً على أداء الصلوات محباً للناس

جميعاً متوددا اليهم فان من يحمل الحقد على الناس ولا يحبهم دني، المنزله قال عنترة :

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب

ولا ينال العلا من طبعه الغضب

ومتى ظهر بهذه الصفات اشرقت أنوار جماله وكماله على كل من جالسه او سمع بسيرته ألا ترى الى قوله تعالى حكاية عن سيدنا عيسى عليه السلام (وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا) فمن عمل بهذه السيرة كان كالشمس اشراقاً والبدر بهجة والنجم هداية وكان مباركاً أينما كان وظهرت أنواره في قلوب نوع الانسان فقال لها ابراهيم وهل يستفاد غير ذلك قالت نعم كثير منها انه لا يكون الانسان كاملاً الا اذا وقف نفسه على الاعمال الشريفة العامة بحيث يكون كالكواكب المشرقة على العاصي والطائع ولا يطلب بذلك اجراً ولا يرغب عليه شكراً ولعمرك لم يمدح الله عز وجل احداً من عباده بذلك الا المخلصين من الانبياء واكابر الاتقياء اما قرأت كلمات المرسلين (وما أسألكم عليه من أجر إن أجري الا على رب العالمين) وما ورد في حكاية

الله عن أكابر الدين (انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا) فمن اتسم بهذا الوصف الجميل وعقل رموز هذه الكائنات كانت حركاته وسكناته خالصة لله عز وجل ومنها انه لا يضيع وقتاً من أوقاته سدى بلا فوائد علمية ولا كمالات ادبية :

على نفسه فليبك من ضاع عمره

وليس له منها نصيب ولا سهم

وذلك لما يرى من سير الاجرام الاثيرية والكواكب العلوية بلا انقطاع ليلاً ونهاراً صيفاً وشتاء ومنها ان يقسم الاعمال على الاوقات ولا يؤخر عمل يومه لغده لما يرى من سير النجوم بحساب متقن لا يتغير بمرور الزمان فالاصباح والاظلام والاشهر والاعوام والقرون منتظمة لانها جارية على حساب محقق فلينظم العاقل اعماله في سلك الاوقات بالترتيب ومن لم يعمل بهذه السيرة اختل نظام حياته وضاعت اكثر اوقاته سدى اذ لا يدرى ما يصنع فيها وقد كان صلى الله عليه وسلم يقسم أوقاته أقساماً ويجعل لكل قسم عملاً مخصوصاً (راجع القاضي للشفا عياض) وترى أرباب الدواوين وسواس

الدول وأرباب الاقلام خصصوا لكل وقت عملاً ومن ذكرناهم هم ارباب الحل والعقد في هذه الحياة الدنيا وهم المدبرون لشؤونها فانظر كيف نهجوا على حسب هذا النظام السماوى

ومنها الحكمة والعدل ووضع كل شيء في موضعه ليتم النظام. سئل كسرى انوشروان بم انتظم ملكك؟ فقال بالعدل لاني نظرت في ملكوت السموات والارض فرأيته قائماً بالقسط فعلمت ان الملك لا يدوم الا بالاقتداء بملك الملوك في العدل والنظام على حسب الامكان ولقد شهد الله عز وجل لنفسه بانه لا اله الا هو مدبر الخلق على وجه العدل والقيام بالقسط وشهدت بذلك ملائكته والعلماء بالله عز وجل من بني آدم كما قال تعالى (شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولوالعلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) فكل من عرف الاشياء على ما هي عليه علم قطعاً قيام الله عز وجل بتدبير ملكه وشاهد العدل في كل ما يراه في هذا العالم ولعمرك لا يعرف ذلك على أتم وجه الا الله عز وجل ثم ملائكته ثم الكمل الراسخون من بني آدم اما غيرهم فلا يعرفون

من عدل الله تعالى ونظام ملكه الا اسمه قال ابن عباس شهد الله لنفسه بنفسه قبل ان خلق الخلق حين كان ولم تكن سماء ولا ارض ولا بر ولا بحر — أقول قيامه بالقسط في تدبير شؤون خلقه ونظام عدله هو موضوع كتابنا ميزان الجواهر الذي سيلي هذا ان شاء الله تعالى — ثم قالت ومما يستفاد من الكائنات ترك النوم نهاراً لان الله سبحانه وتعالى جعل الليل لنسكن فيه والنهار للعمل النافع ولذلك ترى حذاق الاطباء يقولون بضرره والتجربة شاهدة بذلك اللهم الا غفوة قبيل الظهر قصيرة جداً لمن يتهجد ليلاً. فقال لها ابراهيم قد قلت يستعمل الانسان الحكمة فكيف ذلك؟ فقالت لا يتكلم الا حيث يحسن الكلام ولا يسكت الا حيث يحسن السكوت ولا يتحرك ولا يسكن الا لحكمة فاني ما رأيت مثقال ذرة في السموات ولا في الارض ولا اصغر من ذلك ولا اكبر الا بنظام فقلت من خالف ذلك فهو من الجاهلين الفاسقين واعلم ان كل صفة من صفات الانسان المحمودة فضيلة بين رذيلتين فهما طرفان وهي الوسط كالكرم فانه وسط بين البخل والتبذير وهما مذمومان وهو الممدوح وهكذا التواضع بين التكبر والذلة

والشجاعة بين التهور والجبن وغير ذلك كما قيل :

عليك باوساط الامور فانها سبيل الى نهج الصراط قويم
ولا تك فيها مفرطاً او مفرطاً كلا طرفي كل الامور ذميم

فقال ابراهيم لها ما تقولين في معنى (ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الارض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد) فقالت انى تأملت في معناها ليلة من الليالي بعد صلاة المغرب وانا انظر في عجائب السموات فظهر لي ان الانسان تخدمه هذه العوالم الاربعة فانا نشاهد ان السموات مصدر الخيرات التي تنزل على الارض وتكون منهما المنافع الجليلة وهي بينهما كما هو معلوم ثم هناك عوالم أخرى وراء هذه السموات لا نشاهدها فهي في علمه تعالى لم يطلعنا عليها يأتي لنا منها امداد فتأمل كيف ذكر النبي صلى الله عليه وسلم هذه العوالم الاربعة على هذا الترتيب وكأن هذا اشارة الى ان كل انسان وحده مخدوم بهذه العوالم جميعها فكل جزء صغير من أي واحد منها نعمة عليه قال تعالى (وان تعدوا نعمة الله لاتحصوها) ثم قال لها ابراهيم قد ظهر بالاختبار ان الاقسام العقلية لكل شيء يظهرها الله في الخارج مثلاً يتصور العقل

ان الممكنات في التناسل أربعة أقسام لانه اما أن يكون نسل الانسان مثلاً اناثاً فقط او ذكوراً فقط او مركباً منهما معاً او يكون الانسان عقيماً وقد ظهر هذا كله في الوجود قال الله تعالى (يهب لمن يشاء اناثاً ويهب لمن يشاء الذكور او يزوجهم ذكراناً واناثاً ويجعل من يشاء عقيما انه عليم قدير) هل تعرفين شيئاً نظير هذا ؟ فقالت نعم ان الجهات ست ونرى النبات يتجه برأسه الى اسفل لتناول الغذاء من الارض واختص الحيوان غير الانسان باتجاه رؤوسه الى الجهات الاربع والانسان وحده اتجهت رأسه الى جهة العلو وكأن هذه اشارة عجيبة الى ان النبات اسفل طبعاً والحيوان ارقى منه ومسلط عليه والانسان اعلى منهما ومسلط عليهما ومرشح للترقي الى عالم الملائكة وكذلك نتصور أن يكون الموجود اما مطيعاً لله تعالى أو عاصياً له أو لا يتصور منه طاعة ولا معصية أو جامعاً لهما وقد أبرزه ربك في الخارج فالمطيع دائماً هم الملائكة والعاصي دائماً هم الشياطين والذي لا يتصور منه طاعة ولا معصية هو الجماد والجامع لهما معاً هو الانسان وهكذا الخطوط ثلاثة مستقيم ومنكسر ومنحن وقد أبرز ربك في الخارج هذه

الاشكال في مخلوقاته . فقال لها ابراهيم حسبك ما ذكرته واخبريني عن اعجب شيء سمعته في المكتشفات الحديثة قالت نعم قرأت في بعض الجرائد العلمية انهم عثروا على بقر في الجهات الشمالية الجليدية على اعينها نظارات طبيعية وضعها ربك من حين خلقتها لتقيها شعاع الشمس المنعكس عن الثلج في الارض فان الارض هناك مكسوة ثلجاً دائماً وهذه داخلة في عموم قوله عز وجل (وان مِنْ شيءٍ الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بِقدَرٍ معلومٍ) ولعمرك ان هذه من اعجب آثار رحمته ولطفه بخلقه ومن غرائب ما سمعت من اساتذتي حين تلقي العلوم ان في بلاد الصين نوعاً من الحيات جميل المنظر مرقشاً منقوشاً بمنظر عجيب حسن تربيه نساء الاكابر ويجعلنه زينة لهن وجمالاً وهذا النوع خال من السم وقد جعل الله ذلك الجمال فيه صيانة له عن مد يد الاذى اليه وهو يقوم للنساء مقام الاسورة في ايديهن بحيث يعودنه من صغره على الاستدارة على ايديهن كسوار لا نظير له في العالم من حيث الجمال كما ان في بلاد السودان وافريقا واسيا ثعباناً يقال له البواليس ساماً كالمتقدم فاعطاه مقسم القوى اللاطيف الخبير

جسماً جسيماً ومنظراً هائلاً وقوة عظيمة فيبلغ طوله من ثمانية امتار الى عشرة وهو غليظ كجذع النخلة ويسكن في المغارات وتجاويف الاشجار العتيقة ولا يخرج الا اذا جاع وينتظر مجيء حيوان ليفترسه ومتى ظفر به التف على جسمه وهشمه فيأكل الغزال وبقر الوحش وغيرهما وربما ابتلع الانسان اذا نام ضاماً رجليه فاذا فرقهما ابتلع احداهما حتى اذا وصل الى اصل الفخذ استيقظ النائم وامكنه شق فمه بسكين واخرج رجله سليمة اذ ليس له اسنان البتة بل جعلت معدته تطبخ الحيوان طبخاً فانظر يا سيدي انواع الحيات كيف جعل الله سبحانه سلاح بعضها الجمال وسلاح الآخر القوة وسلاح غيرهما السم (ان في ذلك لعبرة لاولي الابصار)

الفصل الثامن

(في النحل وعجائبه)

(واستطراد بذكر لقاح ذكور النبات لاناثه)

ثم سألت الفتاة ابراهيم وقالت له يا سيدي شنف مسامعي بعذب الفاظك وجميل معناها في تفسير معنى العجب التي اسمعها

منك من اول ان شرفت منزلنا وسألتنا فقال اعلمي زادك الله علماً وحرصاً على الفوائد ان معنى العجب حيرة تعرض للانسان لقصوره عن معرفة الشيء او عن معرفة كيفية تأثيره فان الانسان اذا رأى خلية نحل ولم يكن شاهده قبل و رأى تلك الاشكال المسدسة المنتظمة تحير لعدم معرفة فاعله فان قيل له ان فاعله هو النحل تحير ايضاً من حيث ان ذلك الحيوان الضعيف كيف احدث هذه المسدسات المتساوية الاضلاع المعجزة لمهرة المهندسين مع ما لديهم من العدد والآلات والادراك والتجارب وطول المدة وكيف اهتدت الى تغطية تلك البيوت بغشاء رقيق ليكون الشمع محيطاً بالعسل من جميع جوانبه فلا ينشفه الهواء ولا يصيبه الفار ويبقى كالبرنية المنضمة الرأس فهذا معنى العجب وكل ما في العالم بهذه المثابة الا أن الانسان يدركه في زمن صباه عند فقد التجربة ثم يبدو فيه غريزة العقل شيئاً فشيئاً وهو مستغرق الهم في قضاء حوائجه وتحصيل شهواته وقد أنس بمدركاته ومحسوساته فسقط من نظره بطول الانس بها فاذا رأى حيواناً غريباً او فعلاً خارقاً للعادة انطلق لسانه بالتسبيح فقال سبحان الله وهو

يرى طول عمره اشياء تتحير فيها عقول العقلاء وتندهش فيها نفوس الاذكياء (وكم من آيةٍ في السموات والارض يمرُّون عليها وهم عنها معرضون) فقالت يا سيدي ومن أين هذا الشمع ولم اختار الشكل المسدس ومن أي شيء يجمع العسل؟ فقال لها اما الشمع فان النحل يجده على كثير من النباتات مادة بيضاء كالدقيق واما تلك الخلايا وتسديسها فاعلمي انها اختارت من جملة الاشكال الشكل المسدس فلم تبن بيتاً مستديراً ولا مربعاً ولا مخمساً بل مسدساً لخاصية في الشكل المسدس وهو ان اوسع الاشكال واحواها المستديرة وما يقرب منها فان المربع يخرج منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك المربع حتى لا تضيع الزوايا فتبقى فارغة ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة فان الاشكال المستديرة اذا جمعت لم تجتمع متراصة ولا شكل من الاشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير ثم تتراصُّ الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة الا المسدس فهذه خاصية هذا الشكل وما اشبه هذا النظام الصغير بالنظام الكبير نظام السموات والارض

فانه كله بحساب متقن وميزان عدل وقسطاس مستقيم بل هذا الذي ذكرناه في النحل من الميزان الذي قامت به السموات والارض وبه احكم كل شيء في هذا العالم بل كل حيوان من صغير وكبير هداه الله عز وجل لمعاشه وجميع لوازمه قال الله تعالى (والذي قدر فهدى) أي هدى الحيوان الى ما يلزم له في هذه الحياة ولقد عرف الناس ذلك قديماً حتى استدل الشاعر العربي على جودة الارض ببناء الضب فيها بيته فقال:

سقى الله أرضاً يعلم الضب انها
بعيد عن الآفات طيبة البقل
بنى بيته فيها على رأس كدية
وكل امرئ في حرفة العيش ذو عقل

(أقول وسنوضح هذا الموضوع في ميزان الجواهر ايضاحاً تاماً ان شاء الله تعالى)

قال ابراهيم واما العسل فانه قد وضح في هذه الآية أعظم وضوح قال الله تعالى(وأوحى ربك الى النحل ان اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب

مختلفٌ ألوانُه فيه شفاءٌ للناس ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون) الخطاب بهذه الآية للنبي صلى الله عليه وسلم أو لكل فرد ممن له عقل سليم وفكر مستقيم يستدل به على كمال قدرته تعالى ووحدانيته وانه الخالق لجميع الاشياء المدبر لها بلطيف حكمته وانه كيف ألهم هذا الحيوان الضعيف ان يتخذ تلك البيوت ويدبر ذلك التدبير مع انه من اضعف الحشرات واصغر الحيوانات وكيف جعل له ملكة مسلطة عليه وقد قسمت عليهن الاعمال فجعلت على نفسها وضع البيض فتبيض في كل ثلاثة اسابيع من ستة آلاف الى اثنى عشر ألفاً [1] وجعلت على الشغالة التي عندها جميع الاشغال (والشغالة عندها خناثى النحل أي التي ليست اناثاً ولا ذكوراً) وعدد ما يكون في الخلية من عشرين ألفاً الى ثلاثين ألفاً فمنها البواب الذي لا يسمح لاحد من غير أصحاب الخلية ان يدخلها ومنها ما هو منوط بخدمة البيض ومنها ما هو منوط بتربية صغار النحل ومنها ما يبنى الخلايا ومنها ما يجنى مواد الشمع التي تبنى منها الخلايا

---

(١) من كتاب المختصر المفيد في الاشياء والمواليد لحضرة احمد افندي عبد العزيز

ومنها ما يجنى رحيق الازهار الذي يستحيل في بطونها عسلا تخرجها من فمها لتتغذى به صغار النحل متى خرجت من البيض وينتفع به الناس وكل من هذه الطوائف تؤدي ما عهد اليها بنشاط وهمة على مقتضى اوامر الملكة المسماة باليعسوب او الخشرم (وتسميها العامة أم النحل) وهي أعظمها جثة واكبرها خلقة ومن عجيب امر تلك الملكة انها تقتل كل ما وقع على نجاسة من رعاياها ، ومن سياستها انها اذا أرادت الحمل ارتفعت في الهواء واختارت ذكرًا من غير خليتها ترفعاً عما تحت ادارتها فان عندها ذكورًا لا شغل لها عددها من خمسمائة الى الف في الخلية الا ان تبقى لتسافد الملكة وتحبلها ومتى ظهر حملها قتلت الخنائي هؤلاء الذكور لئلا يضيق المكان ويفنى العسل فسبحان من ألهم تلك الحشرة الضعيفة فعل أعظم الملوك من قدماء المصريين الذين كانوا يحكمون على من لا صنعة لهم بالقتل وألهم تلك الملكة ان حفظ رئاستها وشرف ملكها لا يتم الا بالترفع على ما تحت امرتها ولم ترض لنفسها ان يعلوها احد رعاياها كما حرم في شرعنا الاسلامي نكاح العبد لسيدته وذلك لئلا يختل نظام المعيشة بمحاولة كل من الزوجين الرئاسة

على الآخر هذا بكونه زوجاً وقد قال تعالى (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض) وهذه بالملك ويا للعجب كيف حفظت النحلة شرفها بذلك ولم تحتج الى أوامر شريعة اما نوع بني آدم فلقصور بعضهم عن ذلك جاء تنبيههم عليه بالشريعة الغراء وهذا يناسب ما سمعته من شيخنا الشيخ حسين المرصفي رحمة الله عليه حيث قال نهاية الانسان بداية الحيوان ولعمري ان في قتل خنائي النحل لذكورها عبرة وتبصرة يشير الى انه لم يخلق في هذا الكون مخلوق الا لحكمة (وما خلقنا السماء والارض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويلٌ للذين كفروا من النار) فياليت شعري كيف يرى الانسان هذه العجائب في الحيوان الضعيف ثم يترك اعضاءه وحواسه ومواهبه الشريفة هملا فضلا عن استعمالها في أنواع المفاسد اعاذنا الله من ذلك

ولما امتاز هذا الحيوان الضعيف بهذه الخواص العجيبة والافعال الغريبة الدالة على مزيد الذكاء والفطنة دل ذلك على الالهام الالهي فكان شبيهاً بالوحي فلهذا قال تعالى (وأوحى ربُّكَ الى النحل) وهي قسمان وحشية تسكن الجبال والاشجار

والكهوف وأهلية وتأوى الى البيوت فيبنى لها الناس الخلايا فلذلك قال الله عز وجل (أَنِ اتَّخِذِي من الجبالِ بيوتاً ومن الشَّجرِ ومما يعرِشون) أي يبنون لك من الخلايا ثم ان هنا سراً غريباً ومعنى دقيقاً وهو ان الله الذي دبر الكون على أعجب نظام وابدع اتقان خلق الزهر على ألوان شتى من ابيض ناصع واصفر فاقع واحمر قانٍ أنواع مختلفة ومناظر متنوعة وجعل منها الذكر والانثى أي ان بعض الزهر ذكر تلقح منه الانثى والآخر انثى تحتاج لطلع الذكر وجميع النباتات التي على سطح الكرة الارضية على هذا النسق وهذا مشاهد في النخل ثم منها ما له منظر بهج يسر الناظرين وجمال ورونق ومنها ما ليس كذلك فالذي منظره جميل يحتاج في القاحه الى الحشرات كالنحل وحكمة ذلك الجمال ان تلك الحشرات اذا رأت حسناً واشراقاً وبهجة في ذلك الزهر طارت شوقاً اليه وشغفاً به حتى وصلت اليه فتمتص من رحيقه المختوم تلك المادة الحلوة التي في أسفل الزهرة وقد علقت اذا ذاك جوانبها بطلع الذكر وهي مادة ناعمة تشاهد في الزهر فاذا قضت وطرها وارادت طيرانها خرجت الى الزهرة الاخرى فدنت اليها

وشربت منها فاحتكت جوانبها في مبيض الانثى فالقحتها ولا علم لها بذلك وانما تفعل على مقتضى تدبير مدبر الكون الذي سخر الحيوان والانسان والسماء والارض وكل حيوان يسعى لغرضه وهو في الحقيقة يعمل اعمالاً عجيبة تحتها منافع غزيرة وفوائد كثيرة وهو لا يعلم بها وتلك الفوائد تعود لا محالة على غيره تسخيرًا من مدبر هذا الكون فما لنا لا نعتبر بعد اذ هدانا الله ورأينا عجائبه وتسخيره وكيف نفعل فعلاً ولا نخلص فيه لله الذي صنع هذه الغرائب كلها اذ لا يليق بنا أن تكون افعالنا للنفع العمومي ونحن لا نشعر كهذا الحيوان أولاً يكون فرق بيننا وبينه ونحكم نياتنا في أعمالنا لوجه الله ذي الجلال والاكرام ثم ان الحشرات لا تزال تنتقل من زهرة الى أخرى حاملة من الذكر واضعة في الانثى ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب واعتبر وتبصر ولما كان للنحل فوائد كثيرة من تلقيح الازهار كما ذكرنا وضع الشمع ووضع العسل أمرها تعالى بقوله (ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سُبُلَ ربِّكِ ذُلُلاً) أي مذللة لك الطرق مسهلة لك مسالكها لا يتوعر عليك مكان تسلكينه ولا تمنعين من رحيق تشربينه ولما كانت تلك

الازهار مختلفة الالوان والروائح والطعوم كما أشرنا اليه آنفاً وخرج العسل مختلفاً كذلك على حسبها اردفه عز وجل بقوله (يخرُج من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانُه فيه شفاءٌ للناس) من الامراض التي شفاؤها فيه (ان في ذلك لآية لقوم يتفكرون) فيعرفون بذلك عظمته تعالى وحكمته التي تعجز العقول وانه وضع تلك الاسرار كلها في أضعف خلقه وادناها لا إله الا هو العزيز الحكيم

فقالت يا سيدى قد ذكرت ان في الشجر ذكراً وأنثى فاستمنحك توضيح هذا المقام لغرابته على الافهام فقال ابراهيم ان النباتات كافة لا تثمر الا بان يلقح ذكرها انثاها واعلمي يا عقيلة المجد وربيبة الشرف ان الزهرة قد تشتمل على اعضاء التذكير واعضاء التأنيث معاً وهذا هو الاغلب في النباتات فيحصل التزاوج بين الزوجين ويتم القران بين الفريقين ويرتفع الشقاق من البين وصل دائم وخل ملائم وتسمى تلك الزهرة الجامعة بينهما خنثى وهي كبيت حوى زوجين وحصل بينهما الوفاق فان لم تشتمل الزهرة الا على اعضاء التذكير فقط سميت في عرف النباتيين ذكراً او على اعضاء التأنيث فقط سميت

انثى وقد جعل اللطيف الخبير تلك الاعضاء محفوظة بالزهرة الملونة غالباً بالألوان البديعة المسماة في عرف علماء النبات بالتويج المحاطة من الظاهر بغلاف لونه اخضر مسمى عندهم بالكاس جعلهما مبدعهما لصيانة تلك الاعضاء ووقايتها وحمايتها ابقاء للنوع الى ما شاء خالقه لا إله إلا هو العزيز الحكيم. وكم في تلك الازهار من فوائد جليلة فروائحها ذكية تشرح الصدور وتسر القلوب ومنها ما هو نافع طباً كالاقاح (فراخ ام على) وزهر البنفسج ومنها ما يستعمل في العطارة كالورد والفل وزهر النارنج ومنها ما يستعمل في الصباغة كزهر القرطم واعلمي ان الزهرة الذكر والزهرة الانثى تارة تكونان في شجرة واحدة وتارة تكونان في شجرتين وفي كلتا الحالين لا يتم اللقاح بينهما الا باشياء خارجة كالماء والحشرات والانسان والهواء والاخير هو الاعم الاغلب واما الماء فقد علم انه هو الحامل طلع زهرة البشنين الذكر وموصلها الى الانثى وصنع الانسان مشاهد في النخل واني ليأخذني العجب من صنع ربي عند التفكر في تلقيح الذرة الشامية والخروع فاما الذرة فكل عود منها ذكره في راسه يسقط الطلع منه على انثاه المسماة بالكوز المطر عند العامة

لكونها اسفل منه فهي تستمد الطلع بواسطة الخيوط الملونة بالحمرة او البياض المسماة عند العامة بالشرابة وهذه الخيوط ينزل عليها الطلع من اعلى العود وهو المسمى (الكذاب) عند العامة ويا للعجب لهذه التسمية كأنهم لما رأوا ان هذه الشماريخ لا يخرج لها ثمر سموها كذاباً لكونها تكذب عليهم في الاتيان بالثمر مع انها في الحقيقة هي المثمرة لانها اب للحب الذى يتكون على جوانب الكوز المطر فكيف ينكر ومن المجرب انه اذا قطع ذلك الكذاب قبل تمام تربية المطر لا يكون كما ينبغي وذلك لانقطاع امداده فما أعجب هذا النظام فكأن كل اسفل يستمد من الاعلى كما تستمد الارض من السماء وجميع الحيوان والنبات من السماء فهي حكمة سارية في جميع الموجودات ولذلك لما كان الخروع أنشاه اعلى وذكره اسفل اقتضت حكمة اللطيف الخبير ان يدلي فروع الاناث حتى تصير اسفل ليسهل الامر اما التلقيح بالحشرات كالنحل وغيره فقد شرحته آنفاً وها انا الآن اذكر نكتة لطيفة تقدمت الاشارة اليها وهي ان الزهر الذي تلقحه تلك الحشرات الضعيفة لوّن بالالوان الجميلة ليطير شوقاً اليها

من بعد كما عرفت آنفاً فهذه من حكم جماله كجمال بنى آدم فان حكمته ان يثير شوق كل من الزوجين الى الآخر اما الزهر الذي استغنى عن تلك الحشرات فقد حرم الجمال لحصول التلقيح بالهواء مثلاً او الانسان او بالماء (صنع الله الذي أتقنَ كلَّ شيءٍ) وقال وهو اصدق القائلين (وما كنا عن الخلق غافلين) فقالت يا سيدي ذكرت جمال بنى آدم ومعلوم ان الزوجين سيان في حب النسل فلم اعطيت المرأة من الجمال اكثر مما اعطى الرجل وعكس ذلك في انواع الدجاج ففي الديك من الجمال ماليس في الدجاجة فقال ان النساء اشد من الرجال..... والديك اكثر شبقاً من انثاه واشد شهوة فاعطيت المرأة الجمال وحسن القوام لتجتذب قلوب الرجال والمرأة لما توفرت فيها داعية ... لم تحتج مع ذلك الى كبير جمال في الرجال وعكس ذلك في الدجاج ثم غلب عليها الحياء وتصببت عرقاً فتغاضى هو وصمت .ثم قال بعد هنيهة : يا سيدة العقائل الاماجد وربيبة الشرف هذا موضوع علمي لابد من البحث فيه والخوض في اقاصيه وادانيه اذ نحن بصدد ذكر عجائب الصنعة الالهية وقد قيل تفكر

ساعة خير من عبادة سنة وقال عليه الصلاة والسلام: (تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله) كما رواه في الاحياء واذا اعرض الانسان عن التفكر واتبع هواه واستغرق في لذاته وشهواته هوى في بحر عميق وضل في بر شاسع وينشد اذ ذاك :

لقد ضاع عمر ساعة فيه تشترى ... بملء السما والارض اية ضيعة
فيا درة بين المزابل القيت ... وجوهرة بيعت بأبخس قيمة
افانٍ بباق تشتريه سفاهة ... وسخطاً برضوان وناراً بجنة

فمن فتح الله عين بصيرته فليستغرق اوقات فراغه في التفكر والنظر في عجائب صنع الله كما ارشد الله اليه في كثير من مواضع القرآن منها قوله (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون ففروا الى الله) وههنا نكتة لا يفهمها الا الراسخون في العلم وهو ان اللذات المحسوسة فوقها الترقي في اللذات الاخرى الى ما لا يتناهى فاما نفس الغبي فقد انتهت لذتها الى هذه النقطة ولم تتجاوزها واما العالم العارف فان نفسه تأخذ في الترقي الى ذلك الجمال الاسنى والبهاء والنور فيجد هناك من اللذة ما لا يتصوره الجاهل

لا يعرف الشوق الا من يكابده ولا الصبابة الا من يعانيها

وقد قيل من ذاق عرف وان شئت فتأملي الآية وتعقيب الزوجين بالفرار الى الله ثم قارني هذا بما قدمنا في حديث سيدتنا عائشة رضي الله عنها وقولها اتاني في ليلتي الحديث ثم قال ذريني اتعبد لربي عز وجل الخ وبما في حديث آخر وهو قوله عليه الصلاة والسلام : (حبب اليّ من دنياكم ثلاث النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة) فليفهم اهل المعرفة وليتفكر في ذلك اهل الذوق وهذه المقارنة لم اعثر عليها في كتاب وقال الله تعالى (أَوَلَمْ يَنظروا في ملكوتِ السمواتِ والارضِ وما خلقَ اللهُ منْ شيءٍ وان عسى ان يكون قد اقتربَ اجلُهم)فالامل ممدود والعمر محدود لا ممدود

وليس المراد من النظر تحديق الحدقة نحو زرقة السماء وغبرة الارض فمن لم يرَ من السماء الا زرقتها ومن الارض الا غبرتها فهو مشارك للبهائم في ذلك وادنى حالاً منها قال تعالى (لهم قلوبٌ لا يفقهونَ بها ولهم أعينٌ لا يبصرونَ بها ولهم آذانٌ لا يسمعونَ بها أولئك كالأنعام بل هم أضل) قال في الاحياء:سئل ابن المبارك من الناس قال العلماء قيل فمن الملوك

قال الزهاد قيل فمن السفلة قال الذين يأكلون الدنيا بالدين ولم يجعل غير العالم من الناس لان الخاصية التي بها يتميز الناس عن سائر البهائم هو العلم فالانسان انسان بما هو شريف لاجله وليس ذلك بقوة شخصه فان الجمل اقوى منه ولا لعظمه فان الفيل اعظم منه ولا لشجاعته فان السبع اشجع منه ولا باكله فان الثور اوسع بطناً منه ولا بجماعه فان اخس العصافير اقوى على السفاد منه بل لم يخلق الا للعلم

ماالفضل الا لاهل العلم انهم على الهدى لمن استهدى ادلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه والجاهلون لاهل العلم اعداء
ففز بعلم تعش حياً به ابداً فالناس موتى واهل العلم احياء

الفصل التاسع

(في بيان ان التفكر في المنصوعات اعلى اللذات)

(وفيه ذكر حكمة الجمال وفكاهات ادبية)

ثم قال : اعلمي ان المراد بالنظر التفكر في المعقولات والنظر في المحسوسات والبحث عن حكمتها وتصاريفها ليظهر له حقائقها فانها سبب اللذات الدنيوية والسعادة الاخروية

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم (أرني الاشياء كما هي) وكلما امعن النظر فيها ازداد هداية ومن لم يكن له حظ من هذا النظر فهو في حضيض الجهل وليس له لذة حقيقية يعول عليها في هذه الدنيا بل مثله كمثل النملة تخرج من جحرها الذى حفرته في قصر مشيد من قصور الملك رفيع البنيان حصين الاركان مزين بالجوارى والغلمان وانواع الذخائر والنفائس فانها اذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبتها لم تتحدث لو قدرت على النطق الا عن بيتها وغذائها وكيفية ادخارها فاما حال القصر والملك الذى فيه فهي بمعزل عنه وعن التفكر فيه بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغذائها وبيتها الى غيره وكما غفلت النملة عن القصر وعن ارضه وسقفه وحيطانه وسائر بنيانه وغفلت ايضاً عن سكانه فالجاهل المغرور الذي قصر نفسه على مأكله كما تأكل الانعام وملبسه ولوازم معيشته غفل عن الله عز وجل وبيته وسقفه فلا يعرف من السماء الا ما تعرفه النملة من سقف المنزل نعم ليس للنملة سبيل الى ان تعرف البيت وسقفه وسكانه وعجائبه وبدائعه لقصور نظرها واما الانسان فله قدرة على ان يجول في هذه العجائب ويعرف

ما الخلق غافلون عنه . قالت قد قلت انه ليس لمن حرم هذا النظر لذة حقيقية وكيف هـذا مع اننا نرى الاغنياء فرحين باموالهم والصناع بمصنوعاتهم والتجار بتجاراتهم (كل حزب بما لديهم فرحون) ونرى كلاً يدعي انه هو الذي حيزت له الدنيا بحذافيرها . فقال لها ابراهيم اعلمي ان اللذات لا نهاية لها ولا مطمع في استقصائها والعالم المطلع على هذه العجائب الناظر فيها يرى كل من ذكرته من هؤلاء كالصبيان حيث يفرحون بالكرة والصولجان وعندهم اللعب خير من الملك والثروة فكما ان الرجل العاقل يرى الصبيان في غاية النقص بالنسبة له ويتعجب من فرحهم باللعب وغفلتهم عن لذة النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث كذلك العلماء الناظرون في تلك العجائب يرون لذة لا يتصورها من ذكرته من الاغنياء والتجار والحكام والملوك ويعدون من عداهم صبياناً ناقصين ولأضرب لك مثلاً : لو ان خنفساء ذكراً عشق محاسن انثاه وطفق يتأمل فيها وجمالها عنده وسئل عن رأيه فيها لقال ان جمالها اعلى جمال وبهاءها أعظم بهاء ولو قيل له انظر غادة من حسان الانسان فانها

أبهى وجمالها أعلى بل لا نسبة بين خنفسائك وادنى امرأة من نوع الانسان لانكر ذلك اشد الانكار وما ذلك الا لجهله بالحسان من بني آدم اما لو عرفهن وما افرغ عليهن من الجمال والحسن لانكر جمال خنفسائه وترك مذهبه القديم ونبذ الخنافس ولازم الطنافس لينظر الى الحسان من نوع الانسان

وكأن ابراهيم قصد بهذه المحادثة الاخيرة ان يحول فكرها عن الدهشة التي استولت عليها من شدة الحياء فاستأنست ورجعت للبحث معه فقالت ياسيدي كأن جمال الحيوان والانسان وزينة الازهار لم تخلق لمجرد اللهو بل خلقت لحكم عظيمة وكان القادر الحكيم (وله المثل الاعلى) عامل نوع الانسان والحيوان معاملة الرجل العاقل للطفل فكما ان الرجل العاقل يدخل السرور على ولده بأنواع الملاذ من الفاكهة والحلوى والملابس المنقوشة المزخرفة وكثرة اللعب ليرغبه في التعلم وملازمة الدرس والآداب لا ليقصر نظره على لهو الصبيان ولعبهم بل أراد أمراً أعلى وهو ملازمة العلم والدرس فهكذا الخالق عز وجل وضع هذا الجمال ومن بعض حكمه انه يكون وسيلة الى النسل وبقاء النوع فكما ان الطفل يفرح بالكرة

التي أعطاها له أبوه كذلك الانسان يفرح بذلك الجمال وكما ان القصد عند والده ملازمة الدروس والآداب كذلك أراد الله من الزوجين التناسل لبقاء النوع لبقاء ملكه الى الوقت الذي أراده وقدره فالتناسل مقصود بالاصالة واللذة مقصودة بالتبع بل هي وسيلة لم يؤت بها الا للنتيجة ولذلك ترى الفحل لا يقرب من انثاه وهي لا تشتهيه الا وقت ارادة الحمل ومتى حملت حملاً خفيفاً أبت الاقتراب منه كما انه يأنف منها أيضاً وهذا من العجائب الدالة على احكام الله سبحانه وتعالى لصنعته ولكن ياسيدي كيف تخلفت هذه الحكمة في الانسان فان الشوق بين الزوجين لا يزال ينمو فاذا كان ذلك لمجرد التناسل كما في الحيوان فلم دام في الانسان بعد الحمل. فقال : نعم ان الذكر والانثى في الحيوان ليس بينهما علاقة منزلية ولا يحتاج احدهما الى الآخر بخلاف الانسان فالرجل محتاج اليها لتدبير منزله وارضاع أولاده وهي محتاجة اليه في الانفاق فجعل اللطيف الخبير ذلك السر بينهما لتدوم الالفة ولا يضعف حبل العهد بالحمل . ثم احس ابراهيم بملل وسآمة من طول هذا الموضوع

والكلام فيه فقال: هل لك في الفكاهات الادبية والآحاديث المستملحة عند الاقدمين قالت : من فيك احلى فقال : —

قرأت في كتاب البيان والتبيين للجاحظ ما معناه ان اعرابياً دخل على زوجته يوماً فوجدها ولدت ابنة وكانت العرب تكره البنات فخرج من عندها مغضباً لا يلوي عليها ولا على ابنتها و بقي عند جيرانها شهراً حتى مرَّ يوماً من الايام عليها وهي ترقصها وتغني بهذه الابيات :

ما لابي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا
غضبان الا نلد البنينا تالله ما ذلك في ايدينا
وانما نأخذ ما أعطينا ونحن كالأرض لزارعينا
ننبت ما قد زرعوه فينا

فلما سمع هذا القول عطف عليها وعلى ابنتها وقبل رأسهما وعاش أحسن مما كان معهما واعتذر عما فرط منه فتبسمت الفتاة حين سمعت هذه الحكاية ثم سألها سؤالاً حقيقياً في صورة المازح فقال : ما السبب في طول اذن الحمار وقصر اذن الفرس مع صغر حجم الاول بالنسبة للثاني ؟ فقالت : لان

الفرس قوي حاسة الادراك سريع التأثر بخلاف الحمار فكأن طول اذن الحمار ليجمع الهواء بكثرة ويدخله في الصماخ فيسمع النداء بخلاف الفرس فيكفيه قليل من الهواء لسرعة بديهته ثم قالت : ومن العجب ان الحيوان لما لم يعط الفهم والتفاهم (ومعلوم ان الاوامر انما يعرفها المأمور بحاسة السمع) جعلت اذنه الظاهرة نائبة عن الحاسة الباطنة فربط فيها الحبل ليجره الانسان بالحبل المحسوس في الاذن المشاهدة كما يجر الانسان بحبل معنوي وهو معاني الكلام في الاذن الباطنية ولذلك ترى العامة يقولون يربط الانسان بالاقوال لا بالاحبال. وأخذا يتناشدان الاشعار والملح واللطايف ثم رجعا الى البحث في عجائب الحيوان والنبات ثانياً قالت :

الفصل العاشر

(في دودة الحرير وحكمة قلته وتحريمه على الرجال)

(وما يتبع ذلك من فوائد مهمة)

ان النحل وعجائبه اذكرني الدودة التي تخرج الحرير فان ملابس الحرير أبهج منظراً واغلى قيمة وانعم ملمساً فهي جمال

المخدرات المصونات كما ان شهد النحل تضرب به الامثال في الحلاوة ويا ليت شعري كيف كان ألذ المطعومات واشفاها يخرج للانسان من حشرة ضعيفة واغلى الملابس وابهجها من دودة حقيرة ولقد سمعت ان هذه الدودة اكتشفتها امرأة ملك من ملوك الصين قديماً فقد رأتها تخرج خيطاً متيناً طوله يزيد عن ألف متر وتلفه عليها حتى تصير داخله في مدة لاتجاوز أربعة أيام فصنعت من تلك الخيوط لها ثوباً فاعجب به الملك ثم صاروا يستخرجون الحرير بواسطتها وحظروا ان يطلع عليه من سواهم من الامم الاخرى كعادتهم في جميع صنائعهم حتى احتال قسيسان يونانيان على أخذه حيث وضعا بيضه في عصا مجوفة خيفة من عيون الصينيين الذين كانوا لا يدعون غريباً يأخذ من بلادهم شيئاً وذلك كان في نحو سنة خمس وخمسين وخمسماية بعد الميلاد ثم انتشر بانحاء البسيطة وذكر صاحب دائرة المعارف هذه الرواية وقال ايضاً ان أهل قوص بالبلاد المصرية كانوا يعرفون صنعته قبل التاريخ المتقدم بقرون

هذا واني سنح لي سؤال أفتأذن لى أن أبديه فقال :

هات فقالت : ان الله عز وجل جعل ملابس الانسان مختلفة فبعضها من النبات كالقطن والكتان وبعضها من الحيوان كالصوف والحرير فلم كان غالب الملابس الحيوانية امتن واجمل من الملابس النباتية ولم قل نوع الحرير عما سواه فغلا ثمنه ؟ فقال : اعلمي ألهمك الله انوار العلوم والمعارف ان جميع هذا الكون محكم الوضع عند من أوتى الحكمة وانفتحت عين بصيرته ومن ذلك ان اللطيف الخبير دبر الحيوان باتقان عجيب وجعله اشرف من النبات لان النبات غذاء له فهو لا جرم اتم تركيباً واحكم اتقاناً ولذلك كانت نواتجه أجمل وأبهج من نواتج النبات وحسبنا شاهداً على ذلك ضوء الشمع ونور البترول مثلاً فان بينهما بوناً عظيماً وفرقاً كبيراً من حيث الاشراق والاضاءة والحسن وما ذلك الا لكون الاول نتيجة حيوان والثاني خارج من الارض لم تكتنفه شروط وآلات كالاول

هذا وقد جعل الله كل شيء في هذا الملك على حسب المصلحة فاكثر من الضروريات والحاجيات واقل من الكماليات كنوع القطن والكتان فانهما يحتاج اليهما الخاص والعام فاكثر منهما رحمة بعباده وفضلاً منه اما الحرير فانه لما

كان من الكماليات خصصه بذلك الحيوان الضعيف ليقل حتى لا يستعمله الا أهل الترف والنعيم ومعلوم ان فيه خنوثة لا تليق بالرجال فلو كثرلاتخذوه ملابس ولعم الترف وتعطلت اغلب الصنائع أو كادت قال الله عز وجل (وانْ من شيءٍ الاَّ وعندَنا خزائِنه وما ننزلهُ الاَّ بقدَرٍ معلومٍ) وانظرى الى هذا الاتقان في الصنع مع ما جاء في الشريعةً المطهرة من حظر استعمال الحرير على الرجال وتحريمه عليهم فقد تطابق الوضع الالهي في خليقته مع ما صرح به في أوامر شريعته (ألا لهُ الخلقُ والامرُ تَبارَكَ اللهُ ربُّ العالمين) فليبتهج بتلك الحقائق العالمون وليجزل بها المتفكرون

الفصل الحادى عشر

(في أن الشيء كلما كثر الاحتياج اليه كثر وجوده في الكون)

(وبقدر قلة الاحتياج اليه يقل وجوده)

(وانْ من شيءٍ الاَّ عندَنا خزائنهُ وما ننزلهُ الاَّ بقدَرٍ معلومٍ) فقالت يا سيدي قد أنعشت قلبي بأنوار علومك وجميل ادبك وبديع أفكارك فزدنا مما خطر بخاطرك من الحكم التي

تناسب ما تقدم من الوضع الالهي وترتيب الاكوان فلقد شاقني حسن هذا الحديث من حكمة الحرير . فقال اعلمي يا ذات المجد والادب اني كنت يوماً في بعض المزارع ببلاد مصر مشغوفاً بالتفكر في عجائب الرحمن وصنائعه الجميلة فلاح لي معان رقيقة في خلال سطور الكائنات قبل ان ادرس العلوم الطبيعية والعقلية فاحب ان اذكرها لك اجابة لملتمسك ان لله عزوجل تدبيراً عجيباً حيث اكثر من الهواء الذي يحيط بنا فجعله فوقنا وامامنا وخلفنا ولم يحوجنا جل وعلا في تحصيله الى مؤنة وذلك لشدة احتياجنا اليه للتنفس منه ولبقاء الحيوان والنبات فانه لو انقطع لحظة واحدة لفنى ذلك كله فان جميع ما ذكر يتنفس منه في كل آن فكما ان الانسان والحيوان يجذبان النفس الى داخل بالشهيق ويتنفس الجلد كذلك النبات يتنفس بأوراقه فيخرج الضار ويجلب النافع واحتياجنا الى الماء اقل فان الانسان والحيوان يعيشان بدونه ساعات كثيرة بل اياماً ولا يصبران عن الهواء ولذلك جعل اقل من الهواء على حسب الحكمة واحتجنا في بعض الاوقات الى استعمال الآلات في احضاره وقد سهلها الله سبحانه وتعالى

ويلي ذلك الحبوب ثم الفواكه المختلفة طعماً وغيره وكذلك النظر في المعادن كالحديد الذي لولاه لم تتم صنعة من الصنائع فكل آلة من آلاتها له دخل فيها كابرة الخياط وقدوم النجار ومحراث الزراع بل لولاه ما صلح جسم الانسان بالدم لان فيه جزءاً منه وهو الذي يلونه بلون الحمرة ويقوي جسم الحي ولكثرة منافعه وعمومها ذكره الله عز وجل فقال (وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للناس) وسميت السورة باسمه ايماء لكثرة منافعه كما سميت سورة النحل لما تقدم من دلالته على بارئ الكائنات بعجائبه وغرائبه وكالنحاس فان كثرته في العالم على حسب المصالح والمنافع ولذلك قلت الفضة والذهب فانهما لتقدير قيم الاشياء والزينة ولا جرم ان قلتهما من اجل النعم وادقها حتى يكثر قيمة ما قلَّ منهما فربما وزن بالدرهم ارطال من الفواكه والمطعومات وبمثقال من الذهب يشترى كثير من المطاعم والملابس ومعلوم ان الزينة ليست مقصودة لذاتها وانما هي من الكماليات لحسن المنظر وبهجته فلو كثر الذهب والفضة لتعسر التعامل بهما لرخص قيمتهما وصارا كغيرهما وكثرت بهما الزينة وولع الناس بحسن المناظر وتركوا

الحاجيات فلم يكترثوا بها وفسد النظام واعتراه الاختلال ثم لننظر الى العقيق والماس ونحوهما فانها ابهج وانضر واندر وجوداً من غيرها فغلا ثمنها وقل حاملوها والمتحلون بها والمتحليات وكأن الله عز وجل دلنا بهذا التدبير المحكم على ان هذا الملك لم يقصد للظواهر كحسن المناظر وانما خلق للمنافع والخير المحض وكأن تلك المحاسن من مكملاته ومتمماته فلو اتسع نطاقها وكثر وجودها لانعكست القضية وصارت المقدمة نتيجة والوسيلة مطلباً والفرع اصلاً فياعجباً لهذا الاحكام ويا ليت شعري كأن ذلك الجمال الظاهر نطق بلسان حاله معرباً عن جمال بارئه فان كل ما في هذا الكون من الكمال والمحاسن من آثار جماله ورشحات تترشح من ذلك الجمال والنور الاعلى (الله نور السموات والارض) (فتبارك الله احسن الخالقين) ويعجبني قول الشاعر العربي مخاطباً لفتاة قد شغف بحبها:

أوحشية العينين أين لك الاهل
أبالحَزْن [1] حاوا ام محلهم السهل

---

(١) الحزن الارض الصعبة

قفي خبرينا ما طعمت وما الذي
شربت ومن اين استقل بك الرحل
وأية ارض اخرجتك فاتني
اراك من الفردوس ان فتش الاصل
فان علامات الجنان مبينة
عليك وان الشكل يشبه الشكل

وفي هذا بارقة من بوارق العلوم العالية يرتاح اليها ذو الفكر الثاقب

(حكم عجيبة وبدائع غريبة)

ثم قالت جمال ما اعجب حكم مبدع هذا الكون وما اغرب نظامه لقد اذكرتني ما رأيته في بعض الكتب ان اعظم المنافع واعلاها واجلها واغلاها يخرج من اصغر الحيوان قدراً واصغره جسماً فهذا الديباج الناعم من دودة صغيرة حقيرة واحلى المطعومات وألذها وهو العسل من تلك الحشرة الصغيرة المعربة عن قدرة باهرة وحكمة تامة (وتمت كلمة ربك) فلله ما اجل ما صنع وابدع واحكم (لا إله إلا هو العزيز الحكيم) واجمل الزينة وابهاها واغلاها وهو الدر الذي ترصع به تيجان

الملوك وتحلى به اجياد الغواني من احقر حيوانات البحر وذلك ان الحكيم جلت قدرته وتقدست ذاته خلق في البحر حيواناً وهو الصدف ويسميه العامة (محاراً) وهو عبارة عن قطعة من اللحم عليها غطاء خشن من الخارج ناعم من الداخل وله فم يطبقه لئلا يدخله ماء البحر الملح فيفسده وهيئة غطائه كهيئة كفي الانسان عند انطباقهما وهما متجافيان ونحن نشاهد نظيره كثيراً في البحر الحلو وهذا الحيوان يسكن اعماق البحر الملح ويتربص سكونه من الاضطراب والهيجان في أوقات من الليل ويعلو شيئاً فشيئاً حتى اذا لامس سطح الماء بغاية التؤدة والسكون والانتظام فتح فاه متعرضاً لرحمة ربه من الندى والطل وما يمازجه من العناصر الجوية مما ينزل على أوراق الشجر والزرع فينزل في جوفه ما قدر له ثم يطبق فمه وينزل بنظام ويتحفظ من وصول شيء من ماء البحر في جوفه لئلا يفسده ثم يبقى ساكنا في عمقه ويتدحرج ذلك في جوفه بحركته كما يتدحرج الزئبق فيكون حبات صغيرة ولا يزال كذلك حتى يصير ما أخذه من الجو درراً صغيراً وكبيراً (فتبارك الله أحسن الخالقين) اه بالمعنى والايضاح فتأمل في هذا الجمال المتلألئ

والنور المتوهج كيف ظهر باسم الدر والجوهر كبواسم الثغور من ادنى حيوان البحر الذي ليس له الا حساسة وهي اللمس وبهذا صار اول سلسلة الحيوان مما يلي النبات اذ حيوانات البحر مقدمة طبعاً على حيوانات البر لتقدم الماء على التراب كما أوضحه العلماء والحكماء في شرح دائرة الوجود التي تنظم العالم كله في ترتيب واحد ومنها ملاصقة القرد للانسان التي طار بها داروين فرحاً لقلة اطلاعه على العلوم وظن الغربيون والاغرار من الشرقيين انه علم علماً لم يسبق به راجع نظام العالم والامم الذي الفناه بعد هذا

ولنرجع الى ما كنا فيه فنقول :

فاجمل الزينة من احقر حيوان البحر وابهى الملابس وانفعها من احقر الحيوانات البرية وهي الدودة واحلى المطعومات والذها من أحقر الطيور وهو النحل فانظر هذا التقسيم العجيب كما ان المدنية الحاضرة انما جاءت من قطعة زجاج للنظارات والاستكشافات وقطعة فحم للتبخير وقطعة حديد فانظر كيف كان الرمل (داخل في الزجاج) والحديد والفحم عليها مدار المدنية كما كان تلك الثلاثة عليها الزينة والبهجة هو الله (الذي

أحسن كل شيء خلقه و بدأ خلق الانسان من طين) فياليت شعري كيف نفهم معنى هذه الآية وانه أحسن كل شيء خلقه اذا لم ننظر هذا المنظر وكيف اشتق هذا الانسان العجيب من الطين وكيف جعل الماء ينزل على اليابسة فيكون نباتاً وفي البحر فيكون جوهراً ودراً اه

الفصل الثاني عشر

(في الكلام على حكمة الله عز وجل في الحيوان المسمى)
(سرباس وارس وهيئة الاسماك وعجائبها)
(ووضع السفن على منوالها)

ثم قالت الفتاة يا سيدي قد قرأت في كتاب عجائب المخلوقات للامام العالم زكريا بن محمد بن محمود القزويني رحمه الله ان الله عز وجل خلق حيواناً يسمى سرباس يوجد في بلاد بلوخستان في قصبة أنفه اثنتا عشرة ثقبة فاذا تنفس سمع له صوت موسيقي حسن يطرب الحيوانات فتجتمع فيصيد منها ما يشتهيه فاذا ضجر من انكبابها عليه واجتماعها حوله صاح فيها صيحة هائلة فتفرقت عنه وقد قيل ان المزمار وضع على شكل قصبة انف ذلك الحيوان

وان في أقصى بلاد الروم حيواناً يقال له ارس له قرن وعليه اثنتان وأربعون شعبة مجوفة فاذا هبت الريح يجتمع الهواء فيها فيسمع منه صوت في غاية الحسن فتجتمع الحيوانات عنده لسماعه وقد ذكروا ان بعض الملوك اهدى اليه قرن منها فترك بين يديه عند هبوب الريح فخرج منه صوت مطرب عجيب حتى كاد يدهش الالباب من سماعه طرباً ثم وضعوه منكوسا فكان يخرج منه صوت محزن حتى يكاد يغلب على الانسان عند سماعه البكاء فهل عندك من علم بهذين الحيوانين في المكشفات الحديثة فقال لها يا سيدتي اني ما عثرت على ذكرهما في المؤلفات الجديدة ولعلهما فيما لم اطلع عليه او انهما قد انقرضا في الازمان الغابرة وأما جعل المزمار على شاكلة قصبة سرباس فهذا ليس بدعاً في أفعاله تعالى فان ادق الصنائع واعمها فائدة ما اكتسبه بنو آدم وتعلموه الا من الصنعة الالهية الا ترين الى السفن المواخر في البحر كالاعلام فانها وضعت على مثال السمك فقالت وكيف ذلك ؟

فقال ابراهيم : اعلمي نورك الله بنور العلم ان الخالق جل اسمه جعل تركيب الاسماك مناسباً للمعيشة في الماء كما جعل

للطيور أجنحة تساعدها على الطيران في الهواء. فقالت: وكيف ذلك؟ فقال: ان الاسماك تحتاج في تصرفها في معاشها وتقلبها في اطوارها الى ان تعوم في الماء من جهة الى أخرى او تخفض تارة وترتفع أخرى او تتجه يميناً ويساراً لتبحث عن غذائها او تهرب من عدوها او تطلب صيدها فجعل الله سبحانه وتعالى لها عوامات كمجاذيف السفينة تشاهد في الاسماك في الجوانب وعلى الظهر ومن خلفها وحوصلة تسمى حوصلة العوم فقاعة وهي عبارة عن كيس مملوء هواء خالصاً تضغطه اذا ارادت ان تغوص في الماء فيصغر حجمها وتمدده اذا ارادت ان تطفو على سطحه فيكبر حجمها وجعل ذنبها مستعداً لان يديرها يميناً وشمالاً في البحر فكما ان للسمكة عوامات تمخر بها الماء كذلك جعل للسفينة مجاديف وشرعاً تسيرها حيثما اراد الانسان وكما ان لها ذنباً يكون موازناً لجسمها عند الانحراف يميناً وشمالاً كذلك جعلت الدفة للسفينة حتى يسهل التفاتها يمنة ويسرة فلو انقطع ذنب السمكة مثلاً ما أمكنها ان تنحرف الى احدى الجهتين بل تتجه دائماً جهة الامام ولو انعدمت عواماتها التي في جوانبها وعلى ظهرها لوقفت في مكان واحد وتعطلت عن اكتساب

معيشتها ومن العجيب ان الاسماك جعل شكلها على هيئة تناسب اختراق الماء فلم تجعل رأسها مفرطحة حتى تقاومها لجج المياه فتعوقها عن السباحة فما أدق صنعته سبحانه وما اعم رحمته وكل حي يغدو ويروح في بحار نعمه مشمولاً بسوابغها قال عز وجل (وما كنا عن الخلقِ غافلين) فعجائب الكون ظاهرة والناس عنها غافلون بلذاتهم وشهواتهم. قال عليه الصلاة والسلام : لولا ان الشياطين يحومون حول قلوب بني آدم لنظروا الى ملكوت السموات والارض فالابل مثلاً قصرت اذنابها لاستغنائها بطول اعناقها وعكس ذلك في البقر وكم من حكم ضربنا عن ذكرها صفحاً ليراجعها محب الحكمة في العلوم الطبيعية (والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم)

الفصل الثالث عشر

(في حكمة خلق الحشرات)

فقالت يا سيدي اني اعتقد ان كل هذه العوالم مؤسسة على حكم تحار فيها العقول ولكن الى الآن لم اصل الى حكمة خلق الحشرات من نحو الزنابير والذباب والبعوض فهل عثرت

على ذلك في كتاب قال نعم ان الله عز وجل يخلق الشيء لحكم كثيرة منها ما يعرف ومنها ما لا يعرف اما هذه الحشرات كالزنابير والذباب وغيرها فان حكمها كثيرة منها ان العفونات الفاسدة التي على وجه الارض لو بقيت لفسد الهواء وجاء الوباء وانتشر الهلاك وعم الخراب فخلق الله سبحانه وتعالى تلك الحيوانات منها ليصفو لحمها ولا يعرض لها الفساد الذي هو سبب الوباء وهلاك الحيوان ولذلك ترين الزنابير والديدان والخنافس في دكان القصاب (الجزار) والدباس [1] اكثر مما يرى في دكان البزاز (القماش) والحداد فاقتضت الحكمة الالهية صرف العفونات اليها ليصفو الهواء منها ونسلم من الوباء ومن الحكم العجيبة والاسرار الطبيعية الالهية انك ترين ان نحو الحيات والعقاوب تسكن عادة وتكثر في الاماكن العتيقة والمحال الفاسدة وهكذا خشاش الارض من الخنافس والصراصير وغيرها وترين (الناموس) لا يتولد الا في المحال المستنقعة وكذا الذباب يكثر في المحال القذرة وذلك كله لطف من الله بعباده ورحمة بهم فهذه كلها فضلاً عن كونها

---

(١) الدباس هو صانع الدبس وهو ما يسيل من الرطب

تحيل الى جسمها المواد الفاسدة وتنقي الهواء فهي من جهة اخرى مؤذية بطبعها ينفر منها الانسان فتحمله على ازالة ذلك السبب فكأن لسان حال الحيات والعقارب يقول ان لم تصلح هذا المكان فلتخرج منه والا لدغتك

ولما كان الهواء الفاسد الحامل للمواد المضرة لا يحس الانسان بضرره فيحدث الضرر في الاجسام أو يميت الانسان وهو لا يشعر به جعل الحكيم الخبير تلك الحيوانات وأودع فيها شماً يحس بألمه الانسان فيتنبه فيتخذ الاحتياطات اللازمة للابتعاد عنه وهو مع ذلك لم يقصد منه الا البعد عن تلك الاماكن العفنة فضلاً من الله ونعمه

وهكذا نرى ان من على وجهه قذر يعلوه الذباب لينقي ما عليه وخلق في الانسان كراهية طبيعية لذلك حتى يضطر ان يغسل وجهه فيزيل ذلك القذر فكأن الذباب شرطي (جندي) يلازم اهل القذر ويأمرهم بالنظافة والا ضربهم بسوط يؤلمهم وهو الكراهية الشديدة فسبحان من اودع في كل صغير وكبير من الحيوانات من الحكم والغرائب ما يجهله اكثر الناس وهو نافع لهم ولذلك ضرب الله بهذه الحيوانات

الامثال حتى قال (مثل الذين اتخذوامن دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وان أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) فانكره الجاهلون من المشركين فرد عليهم بقوله (ان الله لا يستحيي ان يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها فاما الذين آمنوا فيعلمون انه الحق من ربهم واما الذين كفروا فيقولون ما ذا أراد الله بهذا مثلاً) ثم بين ان الذين يفهمون ذلك هم العالمون فقال في آية اخرى (وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون خلق الله السموات والارض بالحق ان في ذلك لآية للمؤمنين) فأفاد بهذه الآية انه لا يفهم تلك الحكم الا اصحاب النفوس العالية الشريفة الناظرين في ملكوت السموات والارض الذين عبر عنهم بالعالمين بكسر اللام هذا ومن عجيب الحكم انه عز وجل جعل صغارها مأكولة لكبارها ولولا ذلك لامتلأ وجه الارض منها فليس في ملكه ذرة الا وفيها من الحكم ما لا يحصى واعجب من هذا ان كل ما جعل سبباً لهلاك حيوان جعل لحمه سبباً لدفع ذلك السم فان الاطباء الاقدمين قالوا ان في لحم الحيوان قوة دافعة لسمه فادخلوا لحمها في الترياق والتجربة تشهد ان من

لدغته عقرب يلطخ الموضع برطوبة لحمها فيسكن ألمها في الحال.
ثم ان هذا النوع من الحيوانات يختلف حالها عند الشتاء فمنها ما يموت من برد الهواء كالديدان والبق والبراغيث ومنها ما يكمن فيه ولا يأكل شيئاً كالحيات والعقارب ومنها ما يدخر ما يكفيه لشتائها كالنحل والنمل فتأملي تلك الافعال العجيبة واعلمي ان هذا العالم كله حكم ومصالح وما يعقلها الا العالمون فربما ظهر للخاصة من حكمه ما لا يظهر للعامة وظهر لخاصة الخاصة ما لا يظهر للخاصة فان من رأى تلك الحشرات الصغيرة لم يدر في خلده ان لها بعض تلك المنافع والحكم من تلقيح الأشجار واصفاء الجو من العفونات فهي من المعينات على ما آكلنا وبقاء حياتنا وان من أجل الحكم والطفها وادقها اكل الحيوانات بعضها بعضاً فكم في الجبال والأودية والسهول والقفار من حيوانات لو بقيت جثثها لفسد الهواء ثم هبت الرياح الى ما جاورها من البلاد وعم الخراب ولذلك قال الشيخ كمال الدين الدميري في حياة الحيوان الكبرى ان الذئب يصيد الثعلب فيأكله والثعلب يصيد القنفذ فيأكله والقنفذ يصيد الأفعى فيأكلها والافعى تصيد العصفور فتأكله

والعصفور يصيد الجراد فيأكله والجراد يلتمس فراخ الزنابير فيأكلها والزنبور يصيد النحلة فيأكلها والنحلة تصيد الذبابة فتأكلها والذبابة تصيد البعوضة فتأكلها اه على ان في ذلك فضلاً عن تصفية الجو تغذية الحيوانات وعدم ضياع ذلك الجسم سدى بلا فائدة فلو ترك بلا اكل لتعطلت حكمته اذ ليس في الملك ما تضيع حكمته البتة ففيه دفع مضار وجلب منافع

الفصل الرابع عشر

(في حكمة اكل الحيوانات بعضها بعضاً)

(وان خلاف هذا فساد النظام)

فقالت ياسيدي فيما ذكرت تبصرة وذكرى للاستدلال على تمام حكمة الصانع القادر الا ان ما نشاهده من الآلام التي تعتري الحيوان عند افتراس قويه لضعيفه تقشعر منه الأبدان وتدع العقل حيران في بيداء الفكر فقال لها ياسبحان الله ما خضت في عباب موضوع الا واحببت ان تستوفيه فهاك واصغى لما أقول : اعلمي يا ذكية العقل وربة الفكر

ان الحيوان كافة قد ركب الله فيه قوة الاحساس وجعلها شاملة لاجزاء جسمه الظاهرة والباطنة كما هو موضح في محله الا بعض اعضاء باطنية وهذه الحاسة اعظم نعمة على الحيوان اذ لولاها ماتباعد عن النيران المحرقة والآلام الموبقة والموارد والاخطار المحدقة القاتلة فلم يبال بقطع الرجل وكسر الجناح وفقء العين وذهاب السمع ولأصبح عاطلاً من آلات الحياة بل ربما قضى عليه وهو لا يبدى حراكاً ولا يستطيع فكاكاً فسبحانه من اله تقدس وتعالى جل جلاله وعز كماله ولذلك كانت هذه الحاسة أعم من غيرها الا ترين الى السمع والبصر والذوق والشم فان كلاً منها في موضع يخصه ويناسبه ولم يعم بخلاف هذه فانها عمت الجسم كله وشرحها وتفاصيلها يعلم في محله من كتب الحكمة

ولنرجع الى ما نحن بصدده فنقول قد علمنا ان الحس في الحيوان ضروري لبقائه بحيث لولاه ما بقى له عين ولا أثر وكما ان تلك الحاسة ضرورية فآجال الحيوان لا بد منها لنظام الكون وعمارة الارض اذ لو بقى كل حيوان ولد لضاقت الارض في زمان قليل وتعسرت معايشه فلننظر الى نوع واحد

منها وهو الانسان فانه لو بقي كل مولود من آدم الى الآن لكان على القدم الف قدم وكانت الحياة أشد ألم فما بالك بغيره من أمم الحيوانات الاخرى التي تربو عن العدّ والحصر فلا بد من آجال تنتهي بها حياتها وتلك الآجال لا يعلمها الا مدبرها وصانعها وهو الذي أخفاها عن كل حي منها لتبقى آمالها وتحفظ النظام وعمارة الكون ثم ان تلك الآجال المقدرة والاعمار المحدودة عند الخالق تعالى اما بهلاك طبيعي اوافتراس او اقتناص ولعمرك انه لافرق بين ان تختطفه يد المنون وتذيقه انواع الهون و بين ان يفترسه حيوان فيغدو به وهو شبعان

ومن لم يمت بالسيف مات بغيره

تعددت الاسباب والموت واحد

أما الآلام فلا بد منها على كلتا الحالتين غير انها في القسرى دفعية وقتية وفي الطبيعي بطيئة تدريجية ولعلها في القسرى منعدمة الا ترين من كان في حرب فانه قد يكسر عضوه وهو لا يشعر ونفاذ المقدور على الاحياء خير من انتظارهم البأساء وعلى كل حال يغتفر الالم اليسير في جانب ذلك النفع العظيم واخف الامرين متبع فالحكمة تقتضي

تقديم اخف الضررين بل ما خلق في الكون آلام الا لحكمة باهرة لا يعقلها الا المتفكرون الذين صرفت أذهانهم عن سفاسف الامور بل الآلام والمصائب كثيراً ما تفيد الانسان كمالات وفضائل تهذبه وتهديه وتبصره فكم رأينا مريضاً يبث شكواه الى عدوه ويشرح له مرضه فكأن المرض صفى نفسه من شوائب الغل والحسد وذلك هو المقصود بجميع الشرائع السماوية ولاجلها صنفت الكتب ودونت الدواوين . تأملي في قوله عز وجل حكاية عن سيدنا ابراهيم (يا أبت اني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً) فما أدق هذا التعبير حيث جعل العذاب من الرحمن وذلك يشير بطرف خفي الى ما ذكرته ولقد رأيت في كتاب الكشكول لبهاء الدين العاملي انه ورد في الخبر ان الله تعالى خلق جهنم من فضل رحمته سوطاً يسوق به عباده الى الجنة وفي خبر آخر ان الله تعالى يقول انما خلقت الخلق ليربحوا عليّ ولم ولم اخلقهم لاربح عليهم وقال بعض العارفين والله ما احب ان يجعل حسابي يوم القيامة لابوي لاني اعلم ان الله ارحم بي منهما وفي الحديث (سبقت رحمتي غضبي)

ولقد غفل الناس عن معرفة الحقائق بمتاع قليل ذاهب فالاعين مفتحة ولكن اين ابصارها والآذان سليمة ولكن لا تسمع فقد عميت الابصار وصمت الآذان وغفل الانسان واصبح كل منا في تيهاء معايشه حيران لا يدرى ما يبدى وما يعيد فان ابصر فلفرجه وبطنه وان سمع فلوساوسه وجهله هدانا الله الى سواء الصراط وجملنا بحقائق العلوم من المنطوق والمفهوم .

الفصل الخامس عشر

(في ذكر الحيوان المسمى هيدار وفي كلام عام على)
(جميع اصناف الحيوان وذكر اصغرها)
(وهي الحيوانات المكرسكوبية)

ثم دخل يوماً مجلس المناظرة هو واخوتها على حسب العادة فوجدها تقرأ في كتاب الرسالة الحميدية وراء الستر منشرحة الصدر فارغة البال مظهرة التعجب فقال مِمَّ تتعجبين؟ فقالت من حيوان يسمى الهيدار صغير جداً اذا قطع ثلاث قطع رأسه ووسطه وذنبه وترك بعض ايام صارت كل قطعة حيواناً تاماً كأصلها فينبت للرأس وسط وذنب وللذنب وسط

ورأس وللوسط رأس وذنب والرأس تصير كذلك قبل سواها فمن هذا عجبي فقال لها هذا من الدلائل الشاهدة بان صانع هذا الحيوان لا يحكم عليه في صنعه ناموس ولا تلجئه ضرورة وكم في الحيوان من العجب العجاب تبصرة وذكرى لأُولى الالباب فمنه ذو الصوت الرخيم والنغم الرقيق يهيج بحسنه الالباب ويستثير الصبوة ويستفز الحليم ويأخذ بالالباب فقد اخبرني حاكم من حكام السودان ان هناك وادياً يقال له وادى الريحان فيه من كل فاكهة زوجان منظره جميل وليس له في اشجاره مثيل قد كثرت فيه الحيوانات البرية والطيور على اختلاف انواعها ومنها طير رخيم الصوت كأنه آلة موسيقية كالعود في غاية الجمال . قال فأمرت جندياً ان يأتيني به وكانا زوجين (ذكراً وانثى) يتناوبان الغناء في تلك الرياض الغناء فاحضر احدهما ولم يقدر على الاخر فلما اتي بين يدى ذلك الاسير ترك غناءه واظهر عناءه والتزم الصمت في كل وقت حزناً على الالف فبحث العسكر عن اليفه فوجدوه تجرع غصص الموت وفارق الحياة أسفاً وحزناً وحين رجعوا وجدوا الثاني رهين رمسه وكانا في حال حياتهما يتناشدان باصواتهما الجميلة وهي تحكي

العود الصناعي في حركاته وسكناته لكنهما أفضل منه وأعلى وأجمل وأبهى كيف لا وهذا خارج عن شوق طبيعي وروح آنسة بالحبيب مولعة بالطرب فأين المؤجرة من الثكلى وأين الثريا من الثرى وأين الجماد من الحيوان والفارغ من العاشق الولهان ومنه ذو الصوت المنكر الذي يصم الآذان ويصدع الانسان كصوت الاتان الذي قيل فيه في القرآن (إن انكر الاصوات لصوت الحمير) ومن الحيوان الجميل الذي يستوقف الطرف كالزرافة والطاووس وبعض الديكة وابدع الجميع جمالاً وأحسنه مثالاً الحسان من نوع الانسان من الحور والولدان فهناك دهشة النظر وحيرة الفكر والاخذ بمجامع القلوب والسطوة على الباب ذوي الاحلام والسلطة على أبهة الجبابرة والحكام وكم لهج مداحه بالخدود النواضر والعيون النواعس والملاحة والحور وابتسام الثغر وشنبه بل فضلوا جماله على جمال العلويات ذات الانوار الساطعات بل ربما وسموه بانه يعلمها كما قيل :

كأن وميض البرق رام تعلماً ... لمعنى يزين الثغر اذ يتبسم

وخاف من النسيان صار يعيده ... مراراً وهذا شأن من يتعلم

ومن الحيوان ما تقشعر منه الجلود وترجف القلوب كالثعبان والخنزير ومنه ما بلغ غاية عظيمة في الكبر كالفيل الذي علو الكبير منه اثنا عشر قدماً ومنه الصغير جداً حتى لا يرى الا بالآلة المعظمة (الميكروسكوب) حتى ان ألوفاً منه تسبح في قطرة واحدة من الماء دون ان تزدحم أو تتصادم وهي أجناس وأنواع وصنوف وصور مختلفات فمنها الحيوانات الفصفورية نسبة الى الفصفور لانها تلمع كلمعانه فيجتمع خلق كثير منها لا يحصى على وجه البحر فتلمع وتتوقد كسيل من نار وكلها لا تنام ليلاً ولا نهاراً ولم تر قط في حال سكون وبالبحث وجد ان مائة وستين مليوناً [1] من صغارها لم تبلغ ثقل حبة القمح الواحدة وان في قطرة واحدة من الماء مايزيد عن كل اهل الارض من البشر ثم ان الواحدة منها قد تلد الالوف وألوف الالوف في زمن قصير ولها معرفة تامة بموارد معايشها ومصادرها وميل الى ما يلائم ونفور عما لا يلائم ونباهة تتقي بها الاخطار ولا يصدم احدها صاحبه او يزاحمه مع ان ألوفاً وملايين تسبح في قطرة واحدة من الماء كما تقدم وهي

---

(١) هذه المقادير كلها من الرسالة الحميدية فليراجعها من أراد

سريعة الحركة جداً والغاية في صغرها ما قيل ان نوعاً منها لا تزيد الواحدة منه على جزء من ألفي جزء من عرض الشعرة ولكل منها اعضاء خادمة لبقاء حياتها كبقية الحيوان (فتبارك الله أحسن الخالقين) ومن هذا نفهم الظاهرة التي يخبر بها المسافرون في البحر الاحمر وهي ان احدهم اذا توضأ ليلاً رأى ذقنه كأنها تتوقد ناراً وتشتعل لهباً وما ذلك الا لوجود تلك الحيوانات الفصفورية العائمة على وجه الماء فسبحان من يعلم حركات تلك الحيوانات وسكناتها ومستقرها ومستودعها ومن ألهمها معاشها وفصل اعضاءها ووظائفها وتناسلها وما لها من هاضمة وماسكة ودافعة وحدقة وسمع ، ودبّر بحكمته اجتماعها وافتراقها ثم هل في باطنها حيوانات ادق منها والطف كما في باطن الانسان والحيوان فجل الذي اتقن هذه الصنعة واحكمها لا إله الا هو العزيز الحكيم . فان مصنوعاته لم تتصل لمعرفة عشر معشار ادنى جزء منها فكيف باجزاء وكيف بالارض وما عليها من نبات وحيوان وجبال وانهار وما بين السماء والارض من مطر ورعد وبرق وسحاب وصواعق ورياح وما في السماء من شموس واقمار وسيارات وثوابت وذوات

اذناب وغير ذلك مما لا يحصى ومما خفي علينا علمه فانظر كيف احاط علمه بذلك كله قال الشاعر :

يرى حركات النمل في ظلم الدجى
ولم يخف اعلان عليه واسرار
ويحصى عديد النمل والقطر والحصى
وما اشتملت نجد عليه واغوار
اذا همّ وهم الفكر ادراك ذاته
تعارض اوهام عليه وافكار
وكيف يحيط الكيف ادراك حده
وليس له في الكيف حد ومقدار

وما أحسن ما أوصى به الزمخشري ان يكتب على قبره وهو :

يامن يرى مدّ البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الأليل
ويرى مناط عروقها في نحرها والمخ في تلك العظام النحّلِ
امنن عليّ بتوبة تمحو بها ما كان مني في الزمان الاول

وكما اختلف الحيوان صغراً وكبراً اختلف في مدد اعماره تخالفاً غريباً فعاش الجرىء منه اكثر من الجبان والمائي والبري اكثر من الهوائي الا الرخمة والنسر والببغاء والغراب فانها

عاشت قدر ما يعيش الانسان وقد اشتهر ان النسر الذهبي يعيش مائتي سنة والسلحفاة مائتين وعشرين سنة والفيل اكثر من مائة . ولعمري ان في طول حياة الجريء من الحيوان وقصر حياة الجبان منها لدلالة على تفرد ذلك الصانع الحكيم بالاحياء والاماتة فان الجبان لم ينفعه حرصه على حياته كما ان الجريء مثل الاسد لم يضره اقدامه ولم ينقص من عمره فسبحان المتعزز بالكبرياء والقهر والعظمة المحتجب بجبروته عن ان تدركه صنعته

فسبحان من تعنو الوجوه لوجهه
ويلقاه رهن الذل من هو جبار
عظيم يهون الاعظمون لعزه
شديد القوى كاف لذي القهر قهار

فسبحانك اللهم ظهرت قدرتك وعظمتك في ملكك وملكوتك وتدبيرك العجيب الاحكام سخرت الحيوان وسهلت له سبيل المنافع والمعايش وما أحسن ما قيل

تجلت لوحدانية الحق أنوار فدلت على ان الجحود هو العار

ومن عجيب صنائعه كيفيات التناسل التي ليست على

نمط واحد فان من الحيوانات ما يتم جنينه في داخل جسده ثم يلده كالحيوانات اللابنه ومنها ما تخرج بيوضها منها ثم يتخلق الجنين فيها مهيئاً له داخلها جميع مايلزم من الغذاء وذلك كالطير و بعض الحيات ومن ذلك كيفيات الالقاح وتغذية الجنين فانها كيفيات متباينة تؤدى الى مقصود واحد فبعض الحيوان لا يتم تلقيح ذكره الا اذا وصل المني في باطن الانثى ولو تعرض للهواء فسد كالانسان وكثير من الحيوان ومنه مايلقي منيه على بيض انثاه بعد خروجه منها فلا يفسده الهواء ومنه ما سفاده في وقت معين ومنه ما لا تعيين لوقته ومنه يعلو انثاه عند السفاد ومنه ما يدابرها ومنه ما يلصق جنبه بجنبها ويحاكها حتى تلقي بيضها وهو يلقي منيه على تلك البيوض فيلقحها وذلك كبعض الاسماك ومنها مايغذي صغاره بلبن اعده الخالق الحكيم الرحمن الرحيم في ثدييه او اثديته التي تكون على عدد أولاده في الغالب ومنه ما يزق أولاده زقاً كالحمام ومنه ما يسعى باولاده ويدلها على اقواتها كالدجاج ومنه ما يشترك في تربية اولاده الذكر والانثى وذلك عند ما يكون أولاده غير قادرة على السعي من اول ولادتها وذلك كالعصافير

والحمام والانسان لان انفراد الواحد بالتربيـة مع سعيه على رزقه ايضاً يكلفه فوق طاقته ومنه ما تنفرد أنثاه بالتربية وذلك عند ما تكون أولاده قادرة على السعي وذلك كالدجاج والحجل فاذا تأمل العاقل في هذه العوالم وجدها تسعى لمقصود واحد خاضعة لارادته متجهة لنظام الكون متعاونة على اكماله فالعلويات والسفليات مرتبطة ارتباطاً تاماً بقوانين الجذب العام والتثاقل وعقول بني آدم وادراك الحيوانات وما بينها من المحبة والالفة والشوق فالجذب العام كمحبة عموميـة بين اجزاء العلويات والسفليات وحب الحيوانات لبعضها وشوقها روابط جزئية بين اجزاء صغيرة من هذا الكون فكل ما تراه في الحقيقة انما يسعى للنظام التام وهو يظن انه يسعى لمصلحته الخاصة

اورى بسعدي والرباب وزينب * وأنت الذي تعني وأنت المؤمل

ويعجبني قول بعض أهل السنة للمعتزلي في مجلس المناظرة حين قال : أرأيت ان منعني الهدى وقضى عليَّ بالردى أأحسن اليَّ أم أساء ؟ يا هذا ان منعك ماهو لك فقد اساء وان منعك ما هو له فالملك له يتصرف فيـه كيف شاء ، ولذلك قال الله عز وجل (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون)

الفصل السادس عشر

(في الاستدلال على اليوم الآخر وعلى وجود الله)

(بادلة عقلية قريبة غريبة)

ثم قال ابراهيم قد تكلمنا في مجالسنا السابقة على كثير من دلائل قدرة الله عز وجل وهي في الحقيقة ادلة عقلية عند من له فطنة وفراسة فهل عندك من دليل على الآخرة غير ما يذكرونه في كتب علم الكلام بحيث يكون مقنعاً للعقول فانا كثيراً ما اسمع قولهم في كتب التوحيد ان دليل الآخرة سمعي أي اننا نأخذه من الادلة الشرعية لا من العقل . قالت الفتاة انا لايمكنني ان أقول غير ما سطر في كتب التوحيد . فقال ابراهيم انا قد خطر لي دليل لا يفهمه إلا أولو الالباب والراسخون في العلوم فاشرق وجه الفتاة وقالت هات ماعندك. فقال من نظر بعين البصيرة فيما أودع في هذا العالم من الحكم والعدل والقوانين السارية في العلويات والسفليات والحيوانات ولغاتها وادراكاتها وعقولها حكم بالبداهة انها جارية على نواميس حقة وحساب منتظم دقيق لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها هذه الكواكب والشمس والقمر سابحة

في مداراتها على قوانين لا تقبل التغيير والتبديل ثم لننقل نظرنا الى السفليات نجدها حذت حذو العلويات في النسق والترتيب والنظام فاي حيوان تعدى طوره وأي نبات تجاوز سنته ثم لننظر العقول البشرية نجدها مفطورة على حب العدل والنظام وحذت حذو ذلك النظام الاعلى فلا ترى انساناً على وجه الارض الا واستحسن العدل واستقبح الجور ولذلك ترى أرباب القوانين المخترعين لها من نوع الانسان بل المستنبطين لها في الحقيقة من الشرائع الالهية يحثون على بواطن القضايا كظواهرها هذه الدول الغربية امامنا كم ينفقون الاموال ويرسلون الى الجهات المتباعدة من يبحث على الجاني ولو انفقوا ما انفقوا وكل ذلك لميل العقول الى العدل وان يجازي المحسن باحسانه والمسيء باساءته وما لنا ولارباب القوانين والسياسة فلننظر الى سيد العائلة فانه يعاقب على ذنوب اهل منزله ويجازي كلاً بما فعل بل أي انسان ولو من أضعف الناس عقلاً واقلهم ادراكاً رأى رجلاً يضرب آخر فانه لا يتمالك نفسه ان يأخذ بناصر الضعيف (فطرة الله التي فطر الناس عليها) دعينا من الانسان وانظري الحيوانات فانه مركوز في جبلتها

العدل ايضاً لما شوهد كثيراً فيها بل كثيراً ما علم انها تعاقب بالقتل على التهمة بالزنا وغير ذلك مما هو مشاهد فثبت ان هذه الفطرة منبثة في كل حي على وجه البسيطة بل هي من الموازين التي قامت بها السموات والارض واستقر بها كل موجود ومن المعلوم لكل من اطلع على علم الهيئة والفلك والنبات والحيوان والانسان وعلوم الاحكام والمنطق وعلوم الادب كاللغة والنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع وغيرها ان هذه العلوم كلها قوانين تدلنا على سريان النظام في كل شيء من الموجودات وعلى نهجها وضعت قوانين للمجرمين في هذا العالم وتجري على يد الانسان ولكنها مهما بالغ العقلاء فيها لا تحكم الا على الظواهر ولا يمكن وصولها الى الحقائق بوجه ما فهي أشبه شيء بالجدل الظاهري فانه يدل في الغالب على الجمال الباطني ومن غير الغالب قد تختلف القضية فكذلك الاحكام بالقوانين الشرعية او الوضعية تابعة لاقوال الشهود او القرائن ودلالتها ظاهرية فقط وقد قدمنا ان كل شيء في العالم يسير على نهج الحق والصدق والميزان العدل فلا بد أن يكون لباطن هذه القضايا حاكم يحكم فيها في وقت آخر حتى يكون

ميزانها على حسب الموازين الاخرى الصادقة من العلويات والسفليات وايضاً قد تقرر انه لا يضيع شيء سدى في هذا العالم كما هو مقرر في العلوم الطبيعية فلا تضيع حركة ولا حرارة ولا كهربائية قط بل تنقلب الحركة حرارة والكهربائية تكون حرارة ثم ضوءاً فهكذا تنقلب هذه الاعمال في الآخرة نعيماً او عذاباً أليماً فتذكروا يا أولى الالباب فلم تضيع أفعال العباد والذين لم يؤخذ بناصرهم او الذين أحسنوا في هذه الدنيا ومن تأمل فيما قلناه فهم معنى قول الشاعر:

من يزرع الشر يحصد في عواقبه ندامة ولحصد الشر ابان

وقول الآخر:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه
لا يذهب العرف بين الله والناس

وقول الآخر:

الخير ابقى وان طال الزمان به
والشر أخبث ما أوعيت من زاد

ألا ترين ان زارع الورد لا يجني الشوك وزارع النخل لا يجني الذرة وعلى هذا القياس ترين النفوس تتأثر بأقوالها التي تصدر

منها حسناً وقبحاً فمن اكثر من ذكر شيء أحبه بل خاطر الانسان يؤثر على اخلاقه شرفاً وضعة فعلمنا ان هذه القاعدة مطردة فى المحسوسات والمعقولات وجميع الموجودات ومن فهم ما قدمنا جزم يقيناً انه لابد من يوم يقوم الناس فيه لرب العالمين حتى يقوم بين الناس بالقسط لما ثبت ان كل هذا العالم قائم بالعدل وبقيت افعال الانسان لم توزن الا وزناً ظاهرياً فلا بد من وزن آخر ليكون فصلاً حقاً بميزان عدل لايخس شعيرة وكيف ينتقم رئيس الاسرة وسيد العشيرة من المسيء ويحسن الى المحسن ولا يفعل ذلك رب الارباب (أفنجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض أم نجعل المتقين كالفجار) (أفنجعل المسلمين كالمجرمين مالكم كيف تحكمون) (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم الينا لا ترجعون) (أمْ حسبَ الذين اجترَحوا السيئات ان نجعلَهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً مَحْياهم ومماتُهم ساءَ ما يحكمون) ثم ان كل ما صرحت به أولوحت في هذه المقالة من بحر آية من القرآن وهي قوله تعالى (الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان) قد فسر بالعدل والتسوية كما في الخازن

والنسفي (وما يدريك لعل الساعة قريب) فليتأمل العقلاء وما يدريك لعل الساعة قريب بعد قوله انزل الكتاب بالحق والميزان وليلاحظوا ما ذكرناه في هذه المقالة يظهر وجه هذا التعقيب العجيب ثم أعقب ذلك بقوله جل شأنه (يَستعجل بها الذين لا يُؤمنون بها والذين آمنوا مُشفِقون منها ويَعلَمون انها الحقُّ ألاَ ان الذين يمارُون في الساعة) يخاصمون فيها او يشكون (لفي ضلال بعيد) عن الحق لعدم فطنتهم وادراكهم موازين هذا العالم وفطرة حيوانه على الجزاء وعدم تدبرهم ما أنزل في الكتب السماوية المطابقة تمام المطابقة لما يرى في العوالم بالعقل والنظر الصحيح على ان لنا وجهاً آخر في ذلك وقد عرضته سابقاً على اكابر العقلاء والعلماء فاستحسنوه جداً وهو ان كل بني آدم على أي دين نراهم يحبون تخليد اسمائهم اما نقشاً على الاحجار أو في الكتب المؤلفة او على السنة الناس وأيضاً يحبون الخلود وطول الاعمار ولا نرى احداً يحب الفناء الا من شذ شذوذاً بيناً ثم ذلك الشذوذ لا يدوم وايضاً نرى جميع اهل الارض قاطبة يزورون موتاهم ويتصدقون على ارواحهم واذا نظرنا الى هذه الفطر الثلاث المنغرسة في نفوس

البشر دلتنا دلالة واضحة ان لنا بقاء بعد موتنا اذ جميع فطرنا التي فطرنا عليها صادقة وليس فيها كاذبة البتة ولعمري لا يفهم ما قلناه الا من درس جميع العلوم وعرفها حق معرفتها ألا يرى شهوة الغذاء والتناسل والغضب وما فينا من حياء وجبن وكبر وشجاعة وغير ذلك فكل هذه الفطر خلقت فينا لمصالح صحيحة ومنافع عظيمة وكلها فطر صادقة كما يعرفه اهل العلم فكذلك هذه الفطرة فحبنا البقاء وتخليدنا اسماءنا دليل على ان لنا بقاء بعد الموت وزيارة الاحياء للاموات وعموم هذه العادة في جميع بني آدم دليل على وجود ارواح الاموات والا فما هذا التهافت على المقابر والتصدق على الاموات ولنا وجه آخر وهو اننا لا نقنع في هذه الدنيا بمال ولا علم مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم (منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال) وكل نفس من النفوس البشرية تستشعر في نفسها حب لذة أعلى من جميع اللذات في العالم المشاهد لها بدليل انها لا تقف عند حد محدود بل كلما ارتفعت زهدت فيما وصلت اليه واحبت اعلى منه وما سمعنا بأن احداً قال غير هذه العبارة (هل من مزيد) فهذا لاستشعار النفوس جميعها بان لها لذة

اعلى من هذه فلا بد ان تكون في عالم آخر الذي يطابق وصفه ما احبته النفوس وحنت اليه

وهذه الادله كلها لم أرها في كتاب وانما هي سوانح [1] ويقرب من هذا ان بني آدم يميلون الى عبادة الخالق في كل صقع من اصقاع الارض حتى اهل جزائر المحيط الهادي الذين تباعدت ديارهم عن المتمدينين وانما اختلافهم في تعيينه فمنهم من ظنه شجراً ومنهم من ظنه تمثالاً ومنهم مما لا يحصى كما هو معلوم مستفيض شائع ولا شك ان هذه الفطرة وحدها كافية للاستدلال على صانع هذا الملك العظيم .فأعجب الفتاة ما قال ابراهيم وقالت ماسمعت أدلة اوضح وأبين من هذه

---

(١) اطلعت بعد هذا على استدلال افلاطون بحب البقاء والخوف على الحياة على أن هناك أمراً ثابتاً وهي صورنا الدائمه في عالم آخر ثم اطلعت على بقية هذه الوجوه في كلام الحكماء بعد تأليف هذا الكتاب بسنتين فحمدت الله حمداً كثيراً اه المؤلف

الفصل السابع عشر

(في مناظرات عجيبة ومحاورات غريبة من مبتكرات)

(هذا الكتاب جرت بينهما)

(اعجوبة الزمان وحكمة الرحمن في خلق الانسان)

ثم صال كل منهما صولة وجال في ميدان العلم جولة اذ العلم انس العلماء وبهجة الحكماء فسأل ابراهيم جمال عن اعاجيب الزمان من المباني الاثرية والعجائب الشرقية والغربية وعن ابدع ما رأته وأجمل ما بان بناه وأحسن الزخارف وأبهر اللطائف فقالت لعله الايوان لكسرى انوشروان او قصر النعمان او الاهرام المصرية او برج ايفل الافرنسية او منارة بيزه المائلة المحنية في البلاد التليانية فقال ليست هذه بالاعاجيب ولا هي مقصد الفطن اللبيب فقالت جمال لعلك يا ابراهيم تريد صرح نمرود أو قصر بلقيس أو صرح هامان أو ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد فمكث ابراهيم غير بعيد وقال: أحطت بما لم تحيطي به وجئتك من سبأ بنبأ يقين. فقالت جمال لم يبق الا المحال يا ايها المختال . فقال ابراهيم سمعاً لما اقول سمعاً لاعجب المباني وضعاً واتقنها صنعاً ولكني الغز

لغزاً ولا تسمعين مني الا ركزاً ان أعجب المباني قصر حسن زين قد ارتفع على عمودين مارأت عيني مثله في البهجة والرواء واتقان البناء والحسن والجمال والكمال والاعتدال فلا هو من طين ولا من حجر ولا قصب ولا مدر ولا شعر ولا وبر ولا مما يغرس في الغبراء ولا مما ينزل من السماء ولا من فضة او ذهب ولما كنت رأيته قلت في نفسي لعله ذهب حسي اذ دهشت مما رأيت فظاهره بديع وحليه مزدان باجمل ترصيع ومما هالني منظره وادهشني مخبره انهار تجري على جوانبه هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح اجاج وهذا هلاميّ القوام وهذا يسيغ الطعام وحوله المزارع الخضرة باشكالها البهجة النضرة تأخذ بمجامع القلوب سناء واشراقاً وتبتهج نضرتها جمالاً وايراقاً وتزهو للناظرين حسناً وابراقاً ثم نظرت طباقه فاذا هي ثلاث طبقات بنور الكهرباء مزدانات وفيها سلوك لاتصال الاخبار من الملك الى الرعية ومن الرعية الى الملك فاذا حدث حادث من أي حدب عرفه الملك في لمح البصر أو هو أقرب ولولا خوف اللطيف الخبير لقلت انه على كل شيء قدير وهاك تفصيل طبقاته لتعرفي كنه صفاته اما

طبقته العليا فهي مقر الملك ووزرائه وعيونه وترجمانه وفي تلك الطبقة باب القصر فلا يصدر صادر ولا يرد وارد الا اذا أذن الملك وقد رأيت بواباً شديد الحذر كلما أمره الملك ائتمر وعيونه وأعوانه كثيرون لا يعصونه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وهذه الطبقة متينة البناء في سمت السماء تناسب شرف الملك وعلو قدره وخطره وجاهه والحراس حولها سامعون مطيعون من كل حادث حذرون ويقلها من اسفلها عمود فوق الطبقة الوسطى وهي اوسع من الاولى ومن ابدع مارأيته فيها مخزن عمومي يمد سائر طبقات القصر بالميرة من الاغذية اللطيفة وفواكه مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون وسدر مخضود وطلح منضود وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة فهالني ذلك المكان وكثرة السكان وتمام الاتقان وقلت ليس في الامكان ابدع مما كان ومن العجيب ان تلك الاطعمة كلها مطبوخة في أوانيها مهيأة لمتعاطيها وكل من السكان لا يأخذ من الطعام الا بقدر معلوم وهذه الطبقة الوسطى فيها باب يوصل الى الطبقة السفلى فدخلت منه فرأيت عالماً كبيراً فيه تلك الاقوات المذكورة من جميع الاصناف وهي في ايدى

العملة يطبخونها ويميزون الخبيث من الطيب ويرفعون خالص اللباب الى الطبقة الوسطى لتوزيعه على السكان كما قدمنا في البيان واما الخبيث فيركمونه جميعاً فينزلونه من طريقين اسفلين احدهما من خلف لما غلظ من الخثالة والاخر من الامام لما رق من النخالة ومن الغريب ان هؤلاء العملة يجدون في الليل والنهار لا ينامون وهم عن العمل لا يفترون ولا يسأمون وهذه الطبقة على العمودين اللذين ينتقلان من مكان الى مكان كإرَمَ ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد والاعجب والاغرب ان هذا القصر مع انتقاله حوله عملة اقوياء وترينهم يزرعون ويسقون وهم من خشية الملك مشفقون ويفعلون ما يؤمرون. فقال خبرني عن هذا البنيان فقد حارت فيه الاذهان فاجابته الفتاة بالعقل بعد التأمل والتفكير في كل صغير وكبير وقالت ليس ذلك هو الصرح الممرد من قوارير ولا مما يبني من الذهب بالقناطير الا ان هذا البنيان هو الانسان فقد خلق في احسن تقويم وابهج شكل حديث وقديم فانهاره السوائل ما يسيل من منافذه فريقه حلو ودمعه ملح وماء الاذن مر ومخاطه هلامي القوام مستقذر عند الخواص والعوام ومزارعه

شعوره المرسلات عرفاً والمنشرات نشراً ترسل بين يدى المودة بشرى واما نور الكهرباء والاسلاك التلغرافية فهي كالحياة السارية في الاعصاب المنتشرة في انحاء الجسم فمنها ما ياتى باخبار الاحساس مما يحدث بالخارج من الآلام والآفات واللذات ومنها ما يحرك الاعضاء تارة للطلب واخرى للهرب بامر الروح الذي مركزه الدماغ فهو اذن مركز الاحساس والحركة فلا احساس الا وهو مورده ولا حركة الا وهو مصدرها والطبقة العلياهي الرأس وفيها العقل وامامها الحواس وهي السمع والبصر والشم والذوق وهي تقابل اعوان الملك وعيونه (جواسيسه) وحاسة اللمس افضل الجميع لانها تعم جميع البدن للاخبار بما يلاصقه والحواس الباقية تأتي باخبار البعيد والقريب فما ابدع هذه الغرائب وحاسة اللمس لا يخلو منها حيوان حتى الديدان الصغيرة والعلق الذى في طبقات الثرى فهي الدليل على حياة كل حي اما الحواس الاربعة الباقية فقد يخلو منها بعض الحيوان وهي كالطلائع والحراس ورواد الماء وحاسة اللمس وحدها كخفراء المدينة وشرطيها الذين هم داخل اسوارها لا يتجاوزونها اما تلك الاربع فكل منها قد اختص بعالم من

العوالم يأتي باخباره فالسمع موكل بعالم الاصوات والبصر بعالم الالوان والشم بعالم المشمومات والذوق بعالم المطعومات واما اللمس فاختص بعالم الملموسات التى تلاصقه واما العمود الذي تحت تلك الطبقة فهى الرقبة واما الطبقة الوسطي فهى الصدر وفيه الرئتان فهما معدتان لاصلاح الدم ليدخل له خالص الهواء وينفي الخبث عنه كما ينفي الكير خبث الحديد والقلب يوزعه على جميع اجزاء الجسم بقدر معلوم فللغليظ غليظ وللرقيق رقيق وللكبير كبير وللصغير قليل فكل من تلك الاعضاء له مقام معلوم بحساب منظوم على حسب النظامات الطبيعية واما الطبقة السفلى فهي البطن وما حوت من المعدة والامعاء ففيها الاطعمة النازلة من الفم وهناك تطبخ فما رق وراق من خالص اللباب ذهب الى الكبد فاستحال دماً عبيطاً ومنه يصل الى القلب فيمكث في الجسم واما ما لاينفع الناس في أجسامهم فانه ينزل من السبيلين(فاما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض)

واما العمودان المنتقلان فهما الرجلان واما العملة فهما اليدان

واعلم يا ابراهيم ان في هذا الترتيب سراً عجيباً ونظاماً غريباً

من فهم كنهه اشرقت في قلبه أنوار الحكمة وذلك ان لكل دولة ثلاث طبقات : عليا وهم أرباب التفكر والعقل والعلوم والمعارف والتدبير وهم القائمون بادارتها المدبرون لامورها كالملوك والوزراء وأرباب الدولة ومن نحا نحوهم وهؤلاء لهم في الدولة المساكن العليا والقدح المعلى ويقابلهم في الانسان عقله وقواه التي في دماغه وحواسه وهي لاشك في اعلى الانسان

ووسطى وهم العسكر المحاربون المدبرون (بفتح الباء) باوامر ذوي العقول ويقابلهم في الانسان الدم في القلب وذلك ان الانسان متى احس بما يمس احساسه غلي الدم وفاركما تغلي القدر على النار واستشاط لاخذ الثار وحرك الاعضاء لدفع العار ومن العجيب ان الاعضاء ان دعيت الى الطلب اجابت او للهرب اجادت او للمدافعة اماتت

وسفلي وهم الفلاحون والعملة وهم خدم للطائفتين ومؤتمرون باوامر القسمين يخدمون الامراء والعساكر ونظيرهم في الانسان ما في البطن من القوى المعدّة لطبخ الاطعمة بثيران المعدة وهضمها واصلاحها بالسوائل المعدة لنضجها تجري

من جوانبها مع اختلاف التركيب والنظام الغريب مع ان هذه السوائل التي اختلف تركيبها كالآلات البخارية لو كانت في آلة من الآلات التي يصنعها الانسان لاختلت

وبالجملة فهذه الآلات في البطن تميز الخبيث من الطيب وتجعل الخبيث بعضه على بعض فتركمه جمعاً فتجعله في اسفل سافلين وهنا عبرة للمتنبهين وتبصرة للمتفكرين وذلك ان هذا الوضع يشير بطرف خفي الى ان من انهمكوا في الشهوات واللذات اسفل العالمين وان ذوي العقول السامية اعلى القسمين واهل البأس والشدة بين بين فانظر كيف دل وضع المكان على المكانة والشرف فيا عجباً لهذا الوضع العجيب والاتقان الغريب الذي هو أجل ما خلق الله فقد جمع في جسمه الصغير جمال العالم الكبير فكانت روحه اشرف واجمل ولهذا نسب بنيان جسمه لله في حديث رواه ابو منصور الثعالبي في كتابه المسمى بالاعجاز والايجاز ونصه (ملعون من هدم بنيان الله) يعني من قتل نفساً اه وجعلت روحه عرش الله كما قيل قلب المؤمن عرش الرحمن فانظر كيف جعل جسمه بنياناً وقلبه عرشاً فما ادق هذه الحكم والى ذلك يشير بطرف خفي قوله تعالى (أفمن

أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم) فلما سمع ابراهيم قول جمال بهذا البيان عن ذلك البنيان قال ما شاء الله كان وصار في الامكان (الرحمن علم القرآن خلق الانسان علمه البيان) ثم قالت جمال كيف تبقى الروح بعد الموت مع اننا نرى الجسم متفرق الاجزاء قد اكله الدود وتناثر لحمه وبليت محاسنه وذهب رونقه على اننا نرى الاطباء يخدرون المرضى فلا يحسون بألم ومعلوم ان الموت اشد من التخدير بتلك الاجزاء الطبية فاذا كان بالتخدير لا يحس بالالم ولا بالسرور فما بالك بالموت فقال ابراهيم أيها الفتاة ان للروح بقاء بعد الموت وما مثل الروح في الجسم الا كمثل الماء في الاناء او السراج في الزجاجة التي كأنها كوكب دري فكما ان الماء اذا كان في الاناء اعطى صفاته من حيث الشكل واللون فيحمر لاحمراره ويصفر لاصفراره ويخضر لاخضراره كذلك الروح ما دامت في الجسم تعطي حكمه وتتأثر بتأثره فتتخدر بالتخدير وتضعف بالضعف حتى ان المريض تراه سيء الخلق لانحراف مزاجه وضعف قواه البدنية والخلق من صفات الروح لا الجسم فهاهنا

تأثرت الروح بالجسم وهكذا حال السكران واقوى من ذلك كله المادة التي تشمم للمريض وهي الكلوروفرم فانها خلاصة مواد متخمرة و بعبارة أخرى خلاصة خمر فلا جرم اذا كان تأثيرها اشد وهذا كله لحكم الجسم على الروح كما حكم الزجاج على الماء[1] فيه فأعطى كثيراً من أحكامه وصفاته وكما ان الزجاجة اذا انكسرت رجع الماء الى حاله الاولى فهكذا اذا فارقت الجسم رجعت الى عالمها متحملة بأنوارها او ظلماتها بل مثل الروح في الجسم كمثل المصباح في الزجاجة فاذا لونت الزجاجة بأي لون خرج ضوء الزجاجة على ذلك اللون نفسه من احمر او أخضر او غيرهما فاذا كسرت الزجاجة بقي النور بشكله الاصلي فالروح اذا فارقت الجسم رجعت الى عالمها فاما الى جنة واما الى نار

اما كيفية النعيم والعذاب للميت فذلك من عالم غير عالمنا لايمكننا الحكم عليه بشيء من الاحكام فان أصاب الميت نار

---

(١) كنت سئلت عن هذا السؤال فاجبت بالجوابين معاً ثم بعد ذلك رأيت سقراط أجاب بالجواب الاول بعينه فمثل بالماء وقال كما قلت فالحمد لله الذي علم بالقرآن ما علمه الحكيم بالحكمة اه مؤلف

او عقارب او حيات او استظل في ظلال وتمتع بالحور العين او غير ذلك فهذا يستحيل مشاهدته اذ هو في عالم غير عالمنا فلا نراه الا بعيون تخلق لنا اذا وصلنا اليه ومن العبث المناقض للحكمة الالهيـة ان نراه بأبصار حياتنا والا وقع الخلط بين العالمين واختلطت عقول الثقلين (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان فبأي آلاء ربكما تكذبان) وكما ان الوحي كان ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تراه ابصار الصحابة مع الايمان به كذلك الاموات يعذبون ويرحمون ونحن حولهم باكون لاهون غافلون مصدقون (فلولا اذا بلغت الحلقوم وانتم حينئذ تنظرون ونحن اقرب اليه منكم ولكن لا تبصرون) (أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً وانكم الينا لا ترجعون) (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل احياء عند ربهم يرزقون فرحين) بل كثيراً ماينام اثنان في لحاف واحد ويرى أحدهما بهجة وسروراً والآخر عذاباً وسعيراً ونحن نبصرهم فلا نرى ما رأيا ولا نسمع ما سمعا فهكذا الاموات في قبورهم بل الميت أشد احساساً واقوى ادراكاً واكمل من النائم بل الموت هو الحياة الحقيقية بالنسبة للحياة الدنيا (الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا)

فنحن الآن نيام فاذا متنا فتلك هي الحياة الحقيقية نرى بواطن العوالم وخفاياها ولنقصر عنان القلم فى هذا المقام فاننا لو استوفينا الكلام لدق على الافهام وفى هذا القدر تبصرة وذكرى لأُولي الالباب

الباب الثاني

« فى الكلام على العلويات . وفيه أربعة فصول »

الفصل الاول

(في عجائب السموات)

ثم قالت يا سيدي شاقني حسن حديثك الى ان تسمعني طرفاً من عجائب السموات والارض وما خلق الله من شيءٍ والجو والسحاب والانهار والجبال لقوله عز وجل (أَولَم ينظروا فى ملكوت السمواتِ والارض وما خلق الله من شيءٍ) وقوله (قل انظروا ماذا فى السموات والارض) وكيف يكون التفكر فيها والاعتبار بها فقال وجوه الاعتبار كثيرة وجمال الصنعة الالهية يدهش العقول ويأخذ بالابصار فهذه النجوم الزاهرة